والعَـالَم هو كُلُّ مَا سِـوَى الله ، فالمـلائكة عَالَم ، والجـن عَـالَم ، والإنس عَالَم ، والجماد عَالَم ، والحيوان عَالَم ، والنبات عَالَم .

فالرسول ﷺ رحمةٌ لكل هذه العوالم .

ويقول تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة]

فَالحقُّ سبحانه ذو الفضل الهائل الزائد عن حاجته سبحانه ، لأنه ربما يكون عندى فَضْل ، ولكننى أُبْقيه لأننى سأحتاج إليه مستقبلاً.

والفَضْل الحقـيقى هو الذى من عند الله سبحانـه ؛ لذلك فإن الله تعالى هو ذو الفضل العظيم ، لأنه غَيْرُ مُحتـاج إلى أحد من خَلْقه أو كَوْنه ؛ لأن الله كان قبل أنْ يُوجَد شىء ، وسيكون بَعْد ألاَّ يوجد شىء .

فإذا نظرنا إلى عالم الملائكة نقول:

ما هى الرحمة التى نالتهم من النبى ﷺ ؟

نقول: «رُوِى أن رسول الله ﷺ سأل جبريل يوماً فقال له: أنت جئتنى من عند الله بقوله سبحانه :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]

فأىُّ رحمة نالتْك منى؟

فقال جبـريل : كنت أخشى سوء العاقبة مـثل إبليس ، فلما أنزل الله عليك قوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (١)﴾ [التكوير : ٢٠] . أَمِنْتُ ».

(١) مكِن مكانة فهـو مكين: ثبت واستقر فهـو ثابت مستقـر. قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ الْيَـوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف : ٥٤] أى : عظيم عندنا ثابت المنزلة .

فإذا كان هذا فى الملائكة ، فَمَا بَالُكَ بالعوالم الأَدْنى من ذلك؟

لا شَكَّ أنه وضع لكل شىء مبدأ ومنهجاً .

وقد وضع الحقُّ سبحانه فى منهجه الطريق المستقيم ، وهو أَقْصر الطرق إلى تحقيق الغاية ، فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم ، ولذلك إذا كنتَ تقصد مكاناً فأقصر طريق تسلكه هو الطريق الذى لا اعوجاجَ فيه ، ولكنه مستقيم تماماً .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء]

فحين تقول: « اهدنا الصراط المستقيم ».

فأنت تطلب من الله تبارك وتعالى أن تكون مع النبيين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصالحين.

أى: أنك تطلب من الله جَلَّ جلاله أنْ يجعلك تسلك نفس الطريق الذى سلكه هؤلاء لتكون معهم فى الآخرة .. فكأنك تطلب الدرجة العالية فى الجنة ؛ لأن كل مَنْ ذكرناهم لهم مَقَام عالٍ فى جنة النعيم .

★★★

(٦) ... عموم رسالة محمد ﷺ

رسالة عالمية ، جاءت للناس كل الناس ، لذلك كان رسولها هو خاتم الرسل والنبيين ، أرسله مَنْ له مُلْك السماوات والأرض ، نبيًا أميًا ، فى اتباعه الهداية والرشاد .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ [الأعراف]

فالحقُّ سبحانه يأمر رسوله ﷺ أن يعلن للناس أن رسالته تعُمُّ الزمان والمكان .

فقد كان الرسل السابقون لرسول الله ﷺ ـ وعلى جميع الرسل السلام ـ قد بُعِث كل منهم لأمة محدودة زمانًا ومكانًا ، أما رسالة محمد ﷺ فهى لعامّة الزمان وعامّة المكان.

وقد وقع المشركون فى اللّبْس ، فقالوا :

﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَّبِّهِ ... (٢٠) ﴾ [يونس]

فقد ظنوا أن الآية هى الآيات المحسّة الكونية المشهودة ، وما علموا أن الآيات التى سبق بها الرسل إنما جاءت لتناسب أزمان رسالاتهم ، ولتناسب مواقعهم من المرسل إليهم .

فكانت الآيات التى اصطحبوها آيات حسِّيَّة ، وكل آية كانت من جنس ما نبغ فيه القوم المبعوث إليهم ، أما محمد ﷺ فلو جُعِل له آية حِسِّيَّة لآمن بها مَنْ شاهدها ، ولَصارتْ خبرًا لمن لم يشاهدها .

ونحن على سبيل المثال كمسلمين لم نصدِّق أن موسى عليه السلام قد ضرب البحر بعصاه فانشقَّ ، إلا لأن القرآن قال ذلك[1] ، لأن كل أمر حسى يقع مرة واحدة فمَنْ شاهده آمن به ، ومَنْ لم يَرَهُ ـ إن حُدِّث به ـ له أنْ يُكذِّب ، وله أن يُصدِّق .

ولكنّا صدَّقنا ، لأن القائل هو الحق سبحانه ، وقد أبلغنا ذلك فى القرآن ، وثقتنا فيمن قال هى التى جعلتنا نصدق معجزات الرسل السابقين على رسول الله ﷺ .

---

(١) يقول تعالى: ﴿ **فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴿٦٣﴾ ﴾ (الشعراء) وقد كانت لهذه العصا ثلاث معجزات ، منها شق البحر ، ومنها تحولها إلى حية عظيمة تلقف ما صنع السحرة من تخييل ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾** ﴾ (الشعراء) والمعجزة الثالثة هى إخراج الماء من الحجر بعد ضربه بالعصا ، وذلك قوله تعالى: ﴿ **فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا .. ﴿٦٠﴾** ﴾ (البقرة).

وقد يتساءل البعض عن السر فى عدم جعل معجزة الرسول الدائمة معجزةً حسِّية .

فنقول : لقد شاء الحق سبحانه أن يرسل الرسول ﷺ بمعجزة باقية إلى أنْ تقوم الساعة ، وهى معجزة القرآن .

وتتحدث كتب السيرة أن الماء نبع[1] من بين أصابعه ﷺ ، فمن صدَّق صدَّق ، وإن قرأتَ ولم تصدق ذلك ، فاعلم أنك لست المقصود بها .

فقد كان المقصود بها هم المعاصرون لها ، وقد جاءت لتربيب[2] الإيمان فى القوم المعاصرين ؛ لأنهم كانوا فى حاجة إلى شَدِّ أزْرهم الإيمانى .

وحدَّثتنا كتب السيرة أيضًا عن حفنة الطعام التى أكل منها عدد كبير من الرجال[3] ، ومن صدَّق الرواية فليصدقها ، ومنْ لم يُصدِّقها ، فهذه الآية لم تأت له ، لكنها جاءت للمعاصرين له ﷺ .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/ ٣٥٦) من حديث زياد بن الحارث الصدائى أن رسول الله ﷺ سأله فى غزوة تبوك : « هل من ماء يا أخا صداء؟ فقال : لا إلا شىء قليل لا يكفيك . فقال النبى ﷺ : اجعله فى إناء ثم ائتنى به ، ففعلت فوضع كفه فى الماء . قال الصدائى : فرأيت بين أصبعين من أصابعه عينًا تفور » . الحديث

(٢) ربَّبه تربيبًا : ربَّاه . وفى الحديث : لك نعمة تربها ، أى : تحفظها وتراعيها وتُربِّيها ، كما يربى الرجل ولده . [لسان العرب ـ مادة : ربب] .

(٣) عن أنس بن مالك قال : صنعت أم سليم للنبى ﷺ خُبْزة ، وضعت فيها شيئًا من سمن . ثم قالت : اذهب إلى النبى ﷺ فادعه . قال : فأتيته فقلت : أمى تدعوك . قال : فقام وقال لمن كان عنده من الناس : قوموا ، قال : فسبقتهم إليها فأخبرتها . فجاء النبى ﷺ فقال : هاتى ما صنعت . فقالت : إنما صنعته لك وحدك . فقال : هاتيه . فقال : يا أنس أَدْخِل علىَّ عشرة عشرة . قال : فما زلتُ أُدْخِل عليه عشرة عشرة . فأكلوا حتى شبعوا وكانوا ثمانين . أخرجه ابن ماجه فى سننه (٣٣٤٢) .

وهذا لا يمنع أن يكون للرسول ﷺ معجزات حسِّية كباقى إخوانه من الرسل علينا أنْ نؤمنَ بها بالثقة فيمَنْ أخبر بها .

والذين طلبوا أنْ يأتى لهم محمد ﷺ بمعجزة حسِّية ، كمعجزة موسى عليه السلام ، نَسُوا أن موسى عليه السلام قد بُعث إلى قوم محدودين ، هم بَنُو إسرائيل .

أما محمد ﷺ فقد بُعِث إلى الناس كافَّة ؛ لذلك كان لابُدَّ أنْ تكون معجزته متجددة العطاءات ، وتحمل المنهج المناسب لكل زمان ومكان ، أما المعجزة الحسية فهى تنقضى بانقضاء زمانها ومكانها .

وقد تميَّز كل رسول بمعجزة يتحدى بها أولاً ، ثم ينتهى دورها ، لينزل له بعدها منهج من السماء ، ليبشِّر به قومه ، لكن رسول الله ﷺ تميَّز بمعجزة لا تنتهى ، وهى عَيْنُ منهجه ؛ لأنه رسول إلى كل الأزمان وإلى كل الأمكنة ، فكان لابدَّ من معجزة تصاحب المنهج إلى يوم القيامة .

وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ :

« أُعطيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحد من الأنبياء قَبْلى:

نُصِرْتُ بالرعْب مسيرة شهر ، وجُعلتْ لى الأرضُ مسجداً وطَهُوراً ، فأيُّما رجلٍ من أمتى أدركتْه الصلاةُ فَلْيُصَلِّ ، وأُحلَّتْ لى الغنائم ، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصَّة وبُعِثْتُ إلى الناس كافَّة ، وأُعطِيت الشَّفاعة » (١)

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

ثم بعد ذلك أراد الحقُّ سبحانه وتعالى أنْ يُثبت عمومية الرسالة بعمومية تسخير الكون للخَلْق ؛ لذلك كان الحديث مُوجّهاً إلى كافّة الناس :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ..﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]

وكل مَنْ يُطلق عليهم ناس فالرسول مُرْسَل إليهم :

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]

وأراد سبحانه أنْ يُعطينا الحيثيات التى تجعل لله رسولاً ، يُبلِّغ قومه وكافَّة الأقوام منهجَ الله فى حركة حياتهم ، فقال:

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ..﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]

وما دام هو الذى يملك السماوات والأرض ، ولم يدّع أحدٌ من خَلْقه أنه يملكها ، وفى السماوات والأرض وما بينهما حياتنا ومقوِّمات وجودنا ، فهو سبحانه أَوْلَى وأحقُّ أنْ يُعبدَ.

ولو أن السماء لواحد ، والهواء لواحد ، والأرض لواحد ، وما بينهما لواحد لَكانَ من الممكن أنْ يكونَ إلهٌ هنا ، وإلهٌ هناك ، وإلهٌ هنالك .

وفى هذا يقول الحق سبحانه:

﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٩١﴾﴾

[المؤمنون]

إذن: فما دام الوجودكله من السماوات والأرض ، وما سواهما لله ، فهو الأوْلى أنْ يُعبد ، وأول قمة العبادة أنْ تشهد بأنه لا إله إلا هو ، وحيثية ألوهيته الأولى أن له مُلْكَ السماوات والأرض .

وما دام إلهـاً فلا بُدَّ أنْ يُطَـاع ، ولا يُطاع إلا بمنهـج ، ولا منـهـج إلا بافعل ولا تفعل . وأول المنهج القمة العقدية. إنه هو التوحيد.

وجعل الله للتوحيد حيثية من واقع الحياة ، فقال :

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ ..﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]

وهـذا أمـر لم يَدَّعِـه أحـد أبداً ، لأن الله هو الـذى له مُلْك السـماوات والأرض ، ولأنه يُحيي ويُميت .

ولذلك نجد مَنْ حاجّ إبراهيم فى ربِّه ، يقول الحقُّ سبحانه عنه :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ..﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة]

وحاول هذا الملك أن يُدير حواراً سُفسطائياً مُضلِّلاً ليفحم ويُسكِت إبراهيم عليه السلام ، فقال :

﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ..﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة]

وذلك بأن يأمر بقتل إنسـان ثم يعفو عنه ، وهو بذلك لا يُميته بل يُحييه فى منطق السُّفسطائيين ، لكن هل الأمر بالقتل هو الموت؟

طبعاً لا ، لأن هناك فارقاً بين الموت والقـتل ، فقد يقتل إنسان إنساناً آخر ، لكنه لا يمكن أنْ يُميته ؛ لأن الموت يـأتى بدون هَدْم بِنْيته بشىء ، برصاصة أو بحجر أو بقنبلـة .

ولا أحـدَ قادرٌ على أنْ يُمـيت أحـداً إذا رغب فى أنْ يُميتـه ، فالمـوت هو الحادث بدون سبب ، لكن أنْ يقتل إنسان إنساناً آخر فهذا ممكن .

ولذلك يقول الحقُّ سبحانه عن نفسه :

﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]

وانظروا إلى الدقـة فى الأداء ، فمـا دام قد أمـر الحق رسوله أن يقـول : إنى رسول الله إليكم جميـعاً ، وحيثية الإيمان هى الإقرار والاعتـقاد بوحدانية الله الذى له مُلْك السماوات والأرض.

وهو سبحانه لا إله إلا هو ، وهو يُحى ويـميت ، لذلك يدعوهم إلى الإيمان بالخالق الأعلى :

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]

لم يَقُلْ مـحمد : وآمـنوا بى ، لأنها ليـست مسـألة ذاتية فى شـخص محـمد ﷺ ، إنما هو تكريم لرسـالتك إلى الناس ، فالإيمان لا بذاتك وشـخصك ، ولكن لأنك رسول الله ، فجاء بالحيثية الأصيلة .

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف]

فالحـيثية هنا هـى الرسالة ، والرسول لم يَأتِ من عند نفـسه ، ولم يَدَّعِ هذا الأمر الجليل لنفسه ، ولكن الشحنة الإيمانية تفيد أنه خُلِق بما يُؤهِّله للرسالة ، وبمجرد أنْ نزل عليه الوحى امتلك اندفاعاً ذاتياً لأداء الرسالة ، ولم يحتج لمن يدفعه لأداء الرسالة .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]

فقد أراد الحق سبحانه أن يُثبت للرسول ﷺ المجيء ذاتياً ، ولكن هذا المجيء الذاتى ليس من عند محمد ﷺ فى البداية ، بل هو رسول من عند الله ، فأتى الحق سبحانه هنا بكلمة «جاء».

وكلمة «رسول» تدلُّ على أنه ليس من عنده ، وكلمة «جاء» تدل على أن الشحنة الإيمانية جعلت لذاته عملاً ، فهو ﷺ يعشق الجهاد من أجل الرسالة ، ويعشق الكفاح من أجل تحقيق هذه الرسالة .

والله الذى أرسل رسوله بالتكاليف والمنهج لكم ، لابُدَّ أن يكون قد كلف مَنْ هو مُؤْتمن عليكم ، وهو محمد ﷺ ، وهو لم يأتِ من جنس الملائكة ، بل هو بشر مثلكم .

ومن رحمته سبحانه أنْ جعل لكم رسولاً من أنفسكم ، ومن قبيلتكم ، ومن العرب ، لا من فارس أو الروم .

والرسول ﷺ هو أول مَنْ آمن بالله ، وامتزج إيمانه بإيمان المؤمنين .

وفى ذلك يقول تعالى :

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . . . ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة]

أى : أن كلاً من الرسول والمؤمنين آمنوا بالله .

إن الإيمان الأول هو إيمان الرسول ﷺ ، والإيمان أيضًا من المؤمنين بالرسالة التى جاء بها الرسول بناءً على توزيع الفاعل فى « آمن » بين الرسول والمؤمنين .

وبعد ذلك يجمعهما الله ـ الرسول والمؤمنين ـ فى إيمان واحد ، وهذا أمر طبيعى ؛ لأن الرسول ﷺ آمن بالله أولاً ، وبعد ذلك بلَّغنا الرسول ﷺ وآمنا بالله وبه ، ثم امتزج الإيمان فصار إيماننا هو إيمان الرسول ، وإيمان الرسول هو إيماننا.

إذن: فالرسول فى مرحلته الأولى سبق بالإيمان بالله ، والرسول مطلوب منه حتى حين يؤمن بالله ـ أن يؤمن بأنه رسول الله .

ألم يَقُل الرسول ﷺ : أشهد أن محمداً رسول الله[1] ؟

وكان الرسول إذا ما أعجبه أمر فى سيرته ذاتها ، يقول: أشهد أنِّى رسول الله[2] . إنه يقولها بفرحة .

---

(١) عن عبد الله بن ربيعة السلمى قال: كان النبى ﷺ فى سفر فسمع مؤذناً يقول: أشهد أن لا إله إلا الله. فقال النبى ﷺ : أشهد أن لا إله إلا الله. قال: أشهد أن محمداً رسول الله. قال النبى ﷺ : أشهد أنى محمد رسول الله . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٣٣٦) .

(٢) أخرج مسلم فى صحيحه (١١١) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ حُنيناً ، فقال لرجل ممن يدعى بالإسلام: هذا من أهل النار. فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة ، فقيل: يا رسول الله الرجل الذى قلت له آنفاً: إنه من أهل النار. فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً ، وقد مات . فقال النبى ﷺ : إلى النار . فكاد بعض المسلمين=

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ..﴿١٣٦﴾﴾ [النساء]

فالحق سبحانه يخاطبكم بلفظ الإيمان ، ويريد أن يتصل إيمانكم بعد كلامه الحق مع إيمانكم قبل كلامه ، فلا ينقطع ولا ينفصم خيط الإيمان أبداً ، بل لا بد من المداومة على الإيمان ، وألا يترك مؤمن هذا الشرف .

فإنْ رأى واحد منكم مُنَادىً بوصف طُلِب منه الوصف بعده ، فليعلم أن المراد هو المداومة .

ونعلم أن الحق هنا يخاطب مؤمنين ومنافقين وأهل كتاب ؛ لذلك فلابُدَّ أن تشملهم الآية ؛ لأن الإنسان إنْ آمن بالله فقط ، فهذا يقتضى أنْ يبحثَ المؤمن بالله عن مطلوب الله ، ومطلوب الله إنما جاء به رسول .

لذلك فالإيمان بالله يقتضى أن يؤمن الإنسان برسول ؛ لأن قصارى ما يعطيك العقل أيها الإنسان أن تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خلقه ويُدبِّره .

ولكن ، ما اسم هذا الإله ؟

= أن يرتاب ، فبينما هم على ذلك إذ قيل إنه لم يمت ، ولكن به جراحاً شديداً ، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأُخبر النبى ﷺ بذلك ، فقال: الله أكبر ، أشهد أنى عبد الله ورسوله. ثم أمر بلالاً فنادى فى الناس أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر .

لا يعرف الإنسان ذلك إلا عن طريق الرسول ، فهذه أمور لا تُعرف بالعقل ، ولكن لابُدَّ من الإخبار بها ، وكذلك مطلوبات الله ، وكذلك جزاء المؤمنين على حُسْن إيمانهم ، ولذلك كان لا بُدَّ من مجيء رسول للبلاغ .

إذنْ: فلابُدَّ مع الإيمان بالله أنْ تؤمنَ بالرسول ، وما دُمْت أيها المؤمن قد آمنتَ برسوله فلابُدَّ أن تؤمن بالكتب التى جاءت على لسان الرسول .

فالقمة الإيمانية هى أنْ تؤمنَ بالله ، ولازمها أنْ تؤمنَ برسول الله ، وأنْ تؤمنَ بكتاب مع الرسول .

ونحن نعلم أن الإسلام بدأ بين الضعفاء إلى أنْ سار الأقوياء إليه ، وتلك سنة الله فى الكون ، بل إننا نجد أن النبى ﷺ فى بَدْء الرسالة كان مطلوباً منه أنْ يؤمنَ بأنه رسول .

وكما تقول أنت: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، كان على النبى ﷺ أيضاً أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وسبحانه جَلَّ شأنه ، الخالق الأكرم ، آمنَ بنفسه أولاً ، بدليل قوله سبحانه:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ..(١٨)﴾ [آل عمران]

فأول شاهد بالألوهية الحقة هو الله ، وقد شهد لنفسه ، ومعنى ذكر شهادته لنفسه لنا أن نؤمن بأنه سبحانه يزاول قيوميته[1] وطلاقة قدرته بكلمة «كُنْ» ،

(١) القيوم والقيام فى صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى: القائم بتدبير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم. والقيوم: من أسماء الله تعالى المعدودة ، وهو القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره ، وهو مع ذلك يقوم به كل موجود ، حتى لا يتصوّر وجود شىء ولا دوام وجوده إلا به. (لسان العرب - مادة: قوم).

وهو سبحانه عالم أن مخلوقاته تستجيب قطعاً .

وكان لابُدَّ أن يعلمنا أنه آمن أولاً بأنه الأول ، وأنه الإله الحقّ، بحيث إذا أمر أىّ كائن أمراً تسخيرياً فلابُدَّ أن يحدث هذا الأمر ، وسبحانه لا يتهيّب أن يأمر.

لذلك قال تعالى:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]

وهى شهادة الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد ، وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال .

وحين يشهد محمد ﷺ أنه رسول الله ، فهو يؤمن بأنه رسول ، ولو لم يؤمن برسالته لَتهيّب أنْ يُبلِّغنا بالرسالة ، وبعد أنْ آمن ﷺ أنه رسول من الله جاءه التكليف من الحق .

إذن : فى البداية كان لابُدَّ أنْ يؤمنَ أنه رسول ، وأنْ يُبلِّغ الدعوة إلى قريش وسائر الجزيرة ، وتعبر دعوته بعد ذلك من الجزيرة إلى الشام ، وتتعدى الرسالة الشام بالإعلام وإنْ لم تتعدّ بالفعل ، حتى يأتى أتباعه من الصحابة وينساحوا بالإسلام فى كل بقاع الأرض .

ولذلك كانت الرمزية فى إرسال الكتب: كتاب لفلان ، وكتاب لفلان ، وكتاب لفلان[1] ، ليفهم العالم أن دعوة النبى ﷺ بالإيمان والإسلام دعوة

(١) بعث رسول الله ﷺ كتباً إلى ملوك الأرض من حول أرض الحجاز كقيصر الروم وكسرى فارس ومقوقس مصر وغيرهم ، يدعوهم إلى الإسلام مع جماعة من أصحابه ، ووجّه كلاً منهم إلى وجهة=

مُتعدّية ؛ لأنها خالفتْ دعوات الرسل عليهم السلام ، فقد كان كل رسول إنما يعلم أنَّ حدود دعوته هى أمته ، أما محمد ﷺ فقد كانت لرسالته مراحل :

آمن بذاته أولاً ، ثم دعا الأقربين ، ثم من بعد ذلك قريشاً ، ثم أبلغ العرب ، ثم الشام ، وتعدَّت الدعوة بالكتب إلى جميع الملوك فى العالم ، وصارت أمة محمد ﷺ مُؤْتمنة على حَمْل الدعوة ونَشْرها فى أى مكان ، ومعها حُجَّتها ، وهى القرآن .

وشاء الله أنْ يختمَ رسولُ الله ﷺ الرسالات ، وأرسله بالإسلام الذى يغلب الحضارات ، رغم أنه ﷺ من أمة أمية لا تعرف شيئاً ، حتى لا يُقال عن الإسلام أنه مجرد وثْبة حضارية ، وجاء لهم بمنهج غلب الحضارات المعاصرة له: فارس والروم فى وقت واحد .

هذه الأمة الأُمية قال فيها الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ (١) رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ (٢) وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة]

وكانت هذه الأمية شَرَفاً لهم كيْلا يُقال: إنهم أصحاب قفزة حضارية من أمة

= وقال لهم «إن الله بعثنى رحمة وكافة، فأدوا عنى يرحمكم الله» أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/ ٦٠٧) عن محمد بن إسحاق .

(١) الأمى: من لا يقرأ ولا يكتب. والأميون هنا: هم العرب لأن معظمهم كان لا يقرأ ولا يكتب .

(٢) زكا: طهر وصلُح. والتزكية : التطهير والإصلاح. قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٤٢٤): «أى : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به فى حال شركهم وجاهليتهم ».

مُتمـدينة ، وكانت هذه الأُمية مُلْفـتة ؛ لأن ما جاء فى تلك الأمـة من تشريعات وقفتْ أمامه الأمم الأخرى إلى زماننا هذا باندهاشٍ وتقدير .

وشاء الحق سبحانه لهذه الأمة أنْ تحملَ رسالةَ السماء لكل الأرض ، وبعد أن نزل قول الحق سبحانه :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ..﴿٣﴾﴾ [المائدة]

فَهِمَ بعض الناس أن الرسول ﷺ ينعى نفسه لأمته .

ومن بعد رحيله ﷺ إلى الرفيق الأعلى انسـاح صحابته بالدين الخاتم فى الدنيا كلهـا ، وخلال نصف قرن من الـزمان صار للإسـلام جناحان: جناح فى الشرق ، وجناح فـى الغرب . وهزم أكبـر امبراطـوريتين متـعاصرتـين له ، هما امبراطورية فارس بحضارتها و امبراطورية الروم .

وكانت البـلاد تتخطَّف الإسلام كمـنهج حياة ، حدث ذلك بعـد أن حارب الإسلامُ الامبراطوريتين فى آنٍ واحد ، وأقبل الـناس على الإسلام لِيتحقَّقوا من معـجزته التى لـمسُوها فى خـلق مَنْ سمـعوا القرآن وحـملوا رسالتـه ، ثم فى اكتشافهم لعدالة القرآن فى إدارة حركة الحياة .

وهكذا اكتشفـوا أن معجزة الإسلام عقليةٌ ، وأن رسالتـه رسالة عامة للناس كافة ، وأن رسوله ﷺ هو الرسول الخاتم الذى لم يَأتِ لهم بـمعجزة حِسِّية

فحسب ، وإذا كـان القرآن معجـزة فى اللغة للقوم الذين نزل فيـهم رسول الله ﷺ ، فالقرآن لمن لم يعرفوا لغة القرآن كـان معجزة فى العدالة والقيم النابعة منه ، والقوانين والتشريعات التى جاء بها .

فالإسـلام قد جـاء بقـوانين لا يمكن أنْ تخرجَ من أُمـة أميـة ، لأنها قـوانين رسـالة خـاتمة ، لذلـك فكانت سابـقةً للعـصـور ، لأنهـا قوانـين تنبع من دين سماوى خاتم .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ..(٢٨)﴾ [سبأ]

وقد فـهم الناس الفارق بين رسـالته ﷺ وبين كافـة الرسالات السـابقة ، فإلى قوم عاد أرسل هوداً ، فقال تعالى :

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ..(٦٥)﴾ [الأعراف]

وقال عن أهل مَدْين[1] :

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ..(٨٥)﴾ [الأعراف]

وقال عن بعثة موسى عليه السلام :

﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ ..(٤٩)﴾ [آل عمران]

---

(١) مدين: اسم قـرية على بحر القـلزم (البحر الأحـمر) أو اسم قـبيلة فى هذا المكان أُرسل إليـهم النبى شعيب عليه السلام. ورد ذكرها فى القـرآن عشر مرات: (الأعراف: ٨٥)، (التوبة: ٧٠)، (هود: ٨٤، ٩٥)، (طه: ٤٠)، (الحج: ٤٤)، (القصص: ٣٢، ٣٣، ٤٥)، (العنكبوت: ٣٦) .

وهكذا حَدَّد الحق سبحانه زمانَ ومكانَ القومِ فى أىِّ رسالة سبقتْ رسالة محمد بن عبد الله ﷺ .

لكن الأمر يختلف حين أرسل سبحانه محمداً رسولاً ، وجعله للناس كافّة ، فقد علم سبحانه أزلاً أن هذا هو الدين الخاتم.

والحق سبحانه قد أرسل الرسل ، وجعل خاتم الرسل سيدنا محمداً ، فمعنى ذلك أن رسالته ﷺ ستكون رسالة لا استدراكَ للسماء عليها ، فما دام الله قد ختم به الرسالة ، وأنزل عليه قوله :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا . . ﴿٣﴾﴾ [المائدة]

إذنْ : فلم يَعُدْ للسماء استدراكٌ على هذه الرسالة.

وقد جاء رسول الله ﷺ بمنهج يضمُّ صحيحَ العقائد والقصص والأخبار ، وهو يوافق ما جاء فى موكب الرسالات من يَوْمِ أن خلقَ الله الأرض وأرسل الرسل .

وقد أخذ الله العهد على الأمم والأنبياء من قبل بأنه إذا جاء رسول مُصدِّق لما معهم لَيُؤمنُنَّ به ، فقال تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ[1] النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

(١) الميثاق: العهد. والمواثقة : المعاهدة . والموثق والميثاق : بمعنى واحد . قال تعالى: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ . . ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف]

مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ [آل عمران]

فرسول الله ﷺ جاء خاتماً ، وجاءت رسالته عامة ، ولذلك أخذ الله العهد على كل رسول أنْ يُبشِّر قومه بأنه سيأتى رسول خاتم ليكون عند أهل كل ديانة خلفية تُطمئنهم على أنه إذا جاء رسول ، فقد عرفوا خبر مَقْدمه .

إذنْ : فرسول الله مشهود له من كل الرسل .

وحينما أرسل الله محمداً ﷺ جعله خِتَاماً للأنبياء ، وختم به رَكْب النبوة ، وهذا يعنى أن النبوة كان لها رَكْب. وفى كل عصر من العصور يأتى نبى على مقدار اتساع الحياة ، وعلى مقدار التقاء الكائنين فى الحياة ، وعلى مقدار الداءات والأمراض التى تأتى فى المجتمع.

ولكن الله عَلِم أَزَلاً أن رسول الله ﷺ سيأتى فى فترة ، ورسالته ومنهجه ينتظم ويضمُّ كل قضايا الزمن إلى أن تقوم الساعة.

وهو زمن يعلم الله أن فوارق المواصلات فيه ستنتهى ، وفوارق الحواجز فيه ستنتهى ، فيحدث الخبر فى أَدْنى الشرق وأعلاه فتسمعه فى أدنى الغرب وأعلاه ، والخبر فى الغرب تسمعه فى الشرق ، والداء يوجد مرّة فى أمريكا ، وبعد يوم أو يومين يوجد فى أىِّ بلد من البلاد .

---

(١) الإصر: العهد الثقيل . وهو: الميثاق والعهد. (لسان العرب ـ مادة: أصر) .

إذن : فالمسافات انتهت ، وجعلت المواصلاتُ العالَم كقطعة واحدة ، فالداءاتُ فى المجتمع القديم كانت تنعزل انعزالاً إقليمياً لِعُسْر الاتصال ، وكل داء فى جماعة قد لا يصل إلى الجماعة الأخرى ، فهؤلاء لهم داء لا يصل إلى الجماعة الأخرى .

لذلك كان الحق سبحانه يرسل لكل جماعة ليعالج داءاتها ، لكن إذا التحم العالم هذا الالتحام ، فلا بُدَّ أن يأتىَ رسول واحد جامع للناس جميعاً ؛ لأن قضايا الداءات ستكون واحدة .

وكذلك أخذ الله العهد على رسولنا ﷺ بأنْ يؤمنَ بالرسل السابقين ، فهو ﷺ لم يأتِ ليهدم أدياناً ، ولكن ليكمل أدياناً ، كأن الأديان السابقة بكل ما جاء فيها من صحيح العقائد والقصص والأخبار موجودةٌ فى الإسلام .

وفوق كل ذلك جاء الإسلام بشرائع تناسب كل زمان ومكان ، ولذلك قال الرسول ﷺ :

«مثَلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بُنْياناً ، فأحسنه ، وأجمله وأكمله إلا موضعَ لبنة ، فجعل الناس يطوفون به ويقولون : ما رأينا أحسن من هذا ، لولا موضع هذه اللبنة ، فكنتُ أنا اللبنة »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٦) كتاب الفضائل ، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ، وكذا أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٦٢)، والحميدى فى مسنده (١٠٣٧) .

إذن : فزمام كل الأمر انتهى إلى رسول الله ﷺ ، فقد أخذ الله العهد على غيره أنْ يُصدِّقوه عندما يجىء ، وهو ﷺ آمن وصدّق بمن سبق من الرسل ، ولن يجىء من بعده شىء يطلب من رسول الله ولا من أمته أن يُصدِّقوه .

❑❑❑

(٧)

البغى .. ومتاع الحياة الدنيا

كثيرٌ من الناس ينسَوْنَ الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هى كل شىء ، لذلك نجد الذين يبغون في الأرض بغير الحق يظلمون الناس ، يأخذون من الدنيا كل شىء ، حلالاً أم حراماً .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس]

عندما يَصِفُ الحق سبحانه الحياة التى نعرفها بأنها «دنيا» ، ففى ذلك ما يشير إلى أن هناك حياةً تُوصَف بأنها «غير دُنْيا» ، وغير الدنيا هى «العُلْيا» .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ[1] لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت]

(١) أى: هى الحياة النشيطة الكاملة الدائمة ذات الحركة والبركة والخير، وحياتهم فى الجنة ليست خاملة. وقال الأزهرى: المعنى أن من صار إلى الآخرة لم يمت ودام حياً فيها لا يموت ، فمن أُدخل الجنة حى فيها حياة طيبة ، ومن دخل النار فإنه لا يموت فيها ولا يحيا. (لسان العرب ـ مادة: حيا) .

أى: هى الحيـاة التى تستـحق أن تُسمّى حـياة ؛ لأن الدنيـا لا يُقاس زمـانها ببدايتها إلى قيام الساعـة ؛ لأن تلك الحياة بالنسبة للكون كله ، ولكن لكُلِّ فرد فى الحياة دُنْيا ليس عـمرها كذلك ، وإنما دُنْيا كل فرد هى مقدار حـياته فيها ، ومقدار حياته فيها لا يُعلم أهو لحظة ، أم يوم ، أم شهر ، أم قَرْن .

وقـصارى الأمـر أنها مـحدودة حَـدّاً خاصـاً لكل عـمر ، وحَـدّاً عامـاً لكل الأعمار.

والمـتعـة فى الدنيـا على قَـدْر حظِّ الإنـسـان فى المـتع ، فـهى على قَـدْر إمكاناتـه، فإذا نظـرنا إلى الدنـيا بهـذا المعيار فإن متاعها يعـتبر قليـلاً ، ولـهذا لا يصح ولا يستقيم أن يغترّ الإنسان بهذه المتعة .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥)﴾ [آل عمران]

فـالغرور ـ إذن ـ أنْ تُـلهـيك متـعة قـصيـرة الأجل عن متـعة عـالية لا أَمَـد لانتهائـها ، فحتى لا يغتـرّ عائش فى الدنيا فـيلهو بقليلها عن كثـير عند الله فى الآخرة يجب أن يُقـارن متعة أجلُهـا محدود ـ وإنْ طال زمـانها ـ بمتعـة لا أَمَد لانتهائها ، متعة على قَدْر إمكاناتك ، ومتعة على قَدْر سعة فَضْل الله .

لذلك كانـت الحياة الدنيـا متـاعَ الغرور ممَّن غُـرّ بالتافـه القليل عن العظيم الجليل .

والله لم يظلم الدنيا فوصفها أنها متاع ، ولكن نبَّهنا إلى أنها ليست المتاع الذى يُغترّ به فيلهى عن متاع أَبْقى ، إنه الخلود .

فنعيم الآخرة دائم لا يزول عنك ، وأنت خالد لا تزول عن النعمة بالفناء أو الموت ، وأنت لا تتمتع فى الآخرة بقدراتك أنت ، بل بقدرة الله سبحانه ، فكأن المتاعَ أكبرُ كثيراً من قدرتك ، وأعلى كثيراً من كل ما تستطيع أن تحققه .

والإنسان لا يستطيع أن يُوقِن أنه سيستمتع بالحياة الدنيا ، فهذا أمر مطعونٌ فيه وغَيْر مُتيقّن ، فليس كل كائن حَىٍّ مُسْتمتعاً بالحياة ، هناك أشقياء ، وهناك تُعَساء ، وهناك مَنْ حياتُهم كلُّهَا تعب .

وحتى أولئك المستمتعون بالحياة فى الحاضر ، مَنْ يُدريهم ماذا يحمل المستقبل لهم ؟ أَلاَ يمكن أنْ يكونَ استمتاعهم هذا وَقْتياً ؟ أَلاَ يمكن أنْ يأتيهم ظَرْف من الظروف ، أو قَدَر من الأقدار يملأ حياتهم بالشقاء ؟

إننا نجد العقلاء ـ حين يَرَوْن فى نعمة الله عليهم مَا يُكدر حياتهم ـ يشكرون الله ، بينما نجد الإنسان السَّطْحى التفكير والفهم يَسْتاء وينفعل ويزيد الموقف مُعَاناة .

العاقل ـ إذنْ ـ يعرف أن الإنسانَ يعيشُ فى دُنْيا أَغْيار ، ومعنى أننا نعيش فى دنيا أغيار أنه تأتى أحداث تنقلنا من حال إلى حال ، أى من الغِنَى إلى الفقر ،

أو من الصحة إلى المرض ، إلى غير ذلك من أحوال الدنيـا المتقلِّبة المتغيّرة ، ففى الدنيـا لا يدوم حال ، وما دامت الدنيا أغـياراً ، فأحوال الناس تتـغير فيـها دائماً .

والحق سبحانه وصف متاع الدنيا ، فقال :

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة]

وقوله سبحـانه: (إلا قليل) ليس مقصوداً به المتعة العـادية للدنيا التى يتمتع بها الناس ، ولكـن المقصـود به متاع القـمة الذى لا يصل إليـه ولا يحدثُ إلا لأفراد قليلين فى العالم .

فقـد يعيش إنسانٌ فى قَـصْر ضَخْم ، وحـوله المئات من الناس يخـدمونه ، وعنده من الأجهزة الالكتـرونية وغيرها ما يـجعله بمجرد أنْ يريدَ شيـئاً يضغط على زرٍّ صغير فيجد ما يريده أمامه ، وكُلُّ شيء حوله يُحقِّق له رغباته .

بل إنه يعيش فى درجة الحرارة التى يريدها داخل قَصْرِه ، وعنده أفْخر أنواع الطعام والشراب ، وإذا أراد أن ينتقلَ من مكان إلى آخر ضغطَ على زِرٍّ فيتحرك به الكرسى إلى المكان الذى يريده ، وكل مَنْ حوله يطيعونه طاعةً عمياء ، فكل رغباته أوامر ، وحياته تُشبِه الحلْم الجميل .

إذا عاش إنسانٌ فى هذا الجو ، وانبهر بهذه الـنعم كلها ، يستوقفه ربٌّ العزة

سبحانه ويُوضِّح له : لا تنبهر، فهذا المتاع الذى تعيش فيه بالنسبة للآخرة قليل.

فإذا قرأ الناس أو سمعوا أو شاهدوا ما يعيش فيه هذا الإنسان من متعة وانبهروا بها ، يُوضِّح لهم الله : لا تنبهروا ولا يأخذكم العَجب ، فكُلُّ هذا الذى تروْنَه أمامكم بالنسبة لمتاع الآخرة قليل (١).

ولهذا نجد الحق سبحانه وتعالى يُنفِّر عباده من أنْ تفتنَهم نِعَمُ الدنيا مهما بلغتْ ، فيُوضِّح لهم: لا تظنُّوا أن هذه النعم كثيرة ، بل إنها نِعَم قليلة بالنسبة لما ينتظركم فى الآخرة ، فإذا كان الإنسان بفطرته يحب كثرة النعم ، ففى هذه الحالة لن تفتنه نِعَم الدنيا ، بل سوف يطلب نِعَم الآخرة .

ورسول الله ﷺ يقول :

«لو أن ابن آدم أُعطِى وادياً ملآن من ذهب أحبَّ إليه ثانياً ، ولو أعطى ثانياً أحب إليه ثالثاً »(٢) .

---

(١) وقد أوضح القرآن موقف الناس من نعيم وزينة قارون واختلافهم فى شأنه ، فكان هناك موقفان :

ـ ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص]

ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص]

ولكن اتضحت حقيقة هذه الزينة ، وأنها غطاء للبغى والظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، فكان عقاب الله بالخسف ، فتغير موقف هؤلاء الدنيويين ، فقال عنهم رب العزة سبحانه :

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص]

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٣٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء(١/ ٣٣٧)عن عبد الله بن الزبير .

أى: أن الإنسان الذى امتلك واديين يريد أنْ يحتفظَ بالواديين كما هما ويطمع فى امتلاك الوادى الثالث ، رغم أنه قد لا يعيش لينفق مقدار وَادٍ واحد ، فالإنسان بطبعه لا يحب القليل من النعم بل يطلب الكثير ، لماذا ؟

لأن كثيراً من الناس ينسَوْنَ الآخرة ، ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هى كُلُّ شىء ، لذلك نجد أولئك الذين يبغون فى الأرض بغير الحق ، ويظلمون الناس يحاولون أنْ يأخذوا من الدنيا كُلَّ شىء يمكن أنْ تُعطيه لهم ، حلالاً أو حراماً ، وهذا واضح فى سلوكهم الدنيوى .

والحق سبحانه يقصُّ علينا خبر قارون الذى أعطاه الله مَا أعطاه من الكنوز والمال والعز والجاه ، ولكنه لم يعترف للمنعم بنعمته عليه ، بل إنه استخدم نعمة الله عليه فى البغى وظلم الناس والعُلُو والفساد فى الأرض .

يقول تعالى :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ[1] بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ[2] إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ

---

(١) ناء بحمله : نهض بجهد ومشقة. وناء به الحمل : أثقله وأماله. ونَوْء العصبة بالمفاتح أن تثقلهم . (لسان العرب ـ مادة: نوأ) .

(٢) الفرح: البطر والأشر . والبطر: التبختر والطغيان فى النعمة . والأشر: شدة المرح . قال الزجاج : معنى قوله تعالى : ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص] . معناه : لا تفرح بكثرة المال فى الدنيا ، لأن الذى يفرح بالمال يصرفه فى غير أمر الآخرة . (لسان العرب ـ مادتا : بطر ، فرح) .

إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ[1] الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

[القصص]

فقارون كان عنده المال الكثير الذى كان بسطوته[2] يظلم الناس ويبغى عليهم ، والبَغْى إما أن يكون بالاستيلاء على حقوق الناس ، وإما بالاحتقار ، أو الازدراء ، وإما بالبطر عليهم .

والبغى : هو تجاوز الحدِّ فى الظلم وهو إفساد ، لأن الإنسان إذا ما أخرج أىَّ شىء عن صلاحه ، يقال : «بغى عليه » ، فإنْ حفرتَ طريقاً ممهداً فهذا إفساد ، وإنْ ألقيتَ بنفاية[3] فى بئر يشرب منه الناس ، فهذا إفساد وبَغْى .

---

(١) الابتغاء : الطلب . والبغية : الحاجة. قال الأصمعى: بغى الرجل حاجته أو ضالته إذا طلبها . (لسان العرب ـ مادة : بغا) .

(٢) السطوة: شدة البطش. والسطو: القهر بالبطش. وسطا عليه: صال . (لسان العرب ـ مادة: سطا) .

(٣) نفاية الشىء: بقيته وأردؤه . والنفاية : ما نفيته من الشىء لرداءته والمراد بالنفاية هنا : الفضلات =

وأىّ شئ قائم على الصلاح فتخرجه عن مهمته ، وتطرأ عليه بما يفسده ، فهذا بغى .

والبغى : أعلى مراتب الظلم ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ .. ﴿٧٦﴾﴾ [القصص]

ويعطينا رسول الله ﷺ صورة البَغْى الممثَّلة فى الاعتداء بالفساد على الأمر الصالح ، فيقول ﷺ :

«أسرع الخير ثواباً : البر ، وصلة الرحم .

وأسرع الشر عقوبة : البغى ، وقطيعة الرحم »[1] .

والحق سبحانه لا يؤخر عقاب البَغْى وقطيعة الرحم إلى الآخرة ، بل يعاقب عليهما فى الدنيا ، حتى يتوازن المجتمع ؛ لأنك إن رأيت ظالماً يحيا فى رضاً ورخاء ثم يموت بخير ، فكُلُّ مَنْ يراه ويعلم ظلمه ولم يجد له عقاباً فى الدنيا ، سوف يستشرى فى الظلم .

ولذلك تجد أن عقاب الله تعالى لمثل هذا الظالم فى الدنيا ، وأن يرى الناس نهايته السيئة ، وحين يرى الناس ذلك يتعظون ، فلا يظلمون ، وهذا ما يحقق التوازن فى المجتمع .

= وكل ما من شأنه تلويث الشىء وإفساده . (اللسان ـ مادة : نفى) .

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢١٢) ، وابن عدى فى الكامل (٤/ ٧٠) ط . دار الفكر . والذهبى فى الميزان (ت/ ٣٨٣١) من حديث عائشة ، كلاهما فى ترجمة صالح بن موسى الطلحى ، وهو كوفى ضعيف . وقال ابن عدى: لا يتعمد الكذب . وسياق نص الحديث يؤخذ به .

وإلا ، فلو ترك الله سبحانه الأمر لجزاء الآخرة لَشَقِى المجتمع بمن لا يؤمنون بالآخرة ويحترفون البغى ؛ ولذلك يرى الناس عذابهم فى الدنيا ، ثم يكون لهم موقعهم من النار فى الآخرة .

ويقول ﷺ محذراً : «لا تَبْغِ ، ولا تكُنْ باغياً»[1] .

فالباغى إنما يصنع خَلَلاً فى توازن المجتمع ، والذى يبغى إنما يأخذ حَقَّ الغير ، ليستمتع بناتج من غير كَدِّه وعمله ، ويتحول إلى إنسان يحترف فَرض الإتاوات على الناس ، ويكسل عن أى عمل غير ذلك .

وأنت ترى ذلك فى أبسط المواقع والأحياء ، حين يحترف بعض ممَّنْ يغترُّون بقوتهم الجسدية ، وقد تحولوا إلى فُتوات يستأجرهم البعض لإيذاء الآخرين ، والواحد من هؤلاء إنما احترف الأكل من غير بَذْل جهد فى عمل شريف .

والبَغْى ـ إذن ـ هو عمل مَنْ يفسد على الناس حركة الحياة ، لأن مَنْ يقع عليهم ظلم البغى ، إنما يزهدون فى الكَدِّ والعمل الشريف الطاهر .

وإذا ما زهد الناس فى الكَدِّ والعمل الشريف تعطَّلت حركة الحياة ، وتعطلتْ مصالح البشر ، بل إن مصالح الظالم نفسها تتعطل ، ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٢/ ٣٣٨) عن أبى بكرة ، وقال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وأقره الذهبى .

﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. (٢٣)﴾ [يونس]

ولقائل أن يسأل: وهل هناك بَغْى بحق ؟

أقول: نعم . لأن البَغْى اعتداء على الصالح بإفساد ، وأنت ساعة ترى إنساناً يفسد الشيء الصالح فتسأله : لماذا تفعل ذلك ، وقد يُجيبك بأن غرضه هو الإصلاح ، ويُعدِّد لك أسباباً لهذا البغى ، فهذا بَغْى بحقٍّ ، أما إنْ كان بَغْياً بدون سبب شرعىّ فهذا هو البَغْى ، بل قمته .

ومثال البَغْى بحقٍّ ، أقول : ألم يستولِ النبى ﷺ على أرض بنى قريظة ، وأحرق زرعهم[1] ، وقطع الأشجار فى أراضيهم ، وهدم دورهم ؟ أليس فى ذلك اعتداء على الصالح ؟

لقد فعل رسول الله ﷺ ذلك ؛ لأنه رَدّ على عدوان أَقْسى من ذلك[2] .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٠٣١)، ومسلم فى صحيحه (١٧٤٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «حرَّق رسول الله ﷺ نخل بنى النضير وقطع وهى البُوَيْرة» والبويرة : مكان معروف بين المدينة وتيماء ، وهى من جهة قبلة مسجد قباء إلى جهة الغرب ، ويقال لها أيضاً البويلة . قاله ابن حجر فى الفتح (٧/ ٣٣٣).

(٢) ذكر ابن حجر فى الفتح (٧/ ٣٣١) فى سبب ذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى بنى النضير يستعينهم فى قضاء دية رجلين من بنى عامر ، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف ، فلما أتاهم يستعينهم قالوا : نعم . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوه على مثل هذه الحال . قال : وكان جالساً إلى جانب جدار لهم ، فقالوا : مَنْ رجل يعلو على هذا البيت فيلقى هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، فأتاه الخبر من السماء ، فقام ﷺ مظهراً أنه يقضى حاجة ، وقال لأصحابه : لا تبرحوا ، وأمر بحربهم والمسير إليهم ، فتحصنوا ، فأمر بقطع النخل والتحريق » .

وهكذا نرى أن هناك بَغْياً بحقٍّ ، وبغياً بغير حَقٍّ ، ولذلك يُسمى الله جزاء السيئة سيئة مثلها ، ويقول سبحانه :

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ..﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة]

ويسميه الحق سبحانه «اعتداء» رغم أنه ليس اعتداء ، بل هو ردّ للاعتداء ، فَلكسْر حِدّة الغِلِّ أباح لك الحق سبحانه وتعالى أن تعتدى على مَنْ اعتدى عليك بمثل ما اعتدى ؛ لأنه سبحانه لا يريد لك أن تظل فى حالة غليان بالغضب أو القهر بما يمنعك من العمل ، بل يريد الحق سبحانه أن تتوجه بطاقاتك إلى أداء عملك .

ولذلك لا يلزمك الحق سبحانه إلا بحكم العدل ، فيقول عز وجل:

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ.. ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة]

ويُطلقها الحق سبحانه وتعالى قضيةً تظلُّ إلى الأبد بعد ما تقدم ، فيقول :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..﴿٢٣﴾﴾ [يونس]

وهنا يُبيِّن الله سبحانه وتعالى وكأنه يخاطب الباغى :

يا مَنْ تريد أن تأخذ حَقَّ غيرك ، اعلم أن قصارى ما يعطيك أَخْذ هذا الحق هو بعض من متاع الدنيا ، ثم تُجازى بعد ذلك بنار أبدية .

وقد سأل ابن مسعود رضي الله عنه رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أىُّ الظلم أعظم ؟ قال: «ذراع[1] من الأرض ينتقصها المرء المسلم من حقِّ أخيه ، فليس

(١) الذراع : مقياس للأطوال بمقدار ٧٥ سنتيمتراً أو ٥٨ سنتيمتراً .

حصاة من الأرض يأخذها أحد إلا طوّقها يوم القيامة إلى قَعْر الأرض ، ولا يعلم قعرها إلا الذى خلقها»[1] .

وأنت إنْ قارنتَ زمن المتعة المغتصبة الناتجة عن البغى بزمن العقاب عليها لَوجدتَ أن المتعةَ رخيصة هيِّنة بالنسبة إلى العقاب الذى سوف تناله عليها ، ولا تأخذ عمرك فى الدنيا قياساً على عمر الدنيا نفسها ؛ لأن الحق سبحانه قد يشاء أنْ يجعلَ عمر الدنيا عشرين مليوناً من السنوات ، لكن عمرك فيها محدود .

فاربأوا[2] على أنفسكم ، وافهموا أن متاع الدنيا قليل ، إن كان هذا المتاع نتيجة ظلمكم لأنفسكم ؛ لأن نتيجة هذا الظلم إنما تقع عليكم ، لأن مُقْتضى ما يعطيكم هذا الظلم من المتعة والنعمة هو أمر محدود بحياتكم فى الدنيا ، وحياتكم فيها محدودة .

ولا يظنّ الواحد أن عمره هو عمر البشرية فى الدنيا ، ولكن لِيَقِسْ كل واحد منكم عمره فى الدنيا ، وهو محدود .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ .. (٧٧)﴾ [النساء]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٩٦) والطبرانى فى معجمه الكبير (١٠/ ٢٦٦) قال الهيثمى فى المجمع (٤/ ١٧٤) : « إسناد أحمد حسنٌ ».

(٢) يقال : إنى لأربأ بك عن ذلك الأمر أى أرفعك عنه . ورابأت الشيء ورابأت فلاناً : حذرته واتقيته . (لسان العرب ـ مادة : ربأ) .

وهنا يؤكد الحق سبحانه : ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم .. ﴿٢٣﴾﴾ [يونس]

وقد يتمثّل جزاء البَغْى فى أن يشاء الحق سبحانه ألاّ يموت الظالم إلا بعد أنْ يرى مظلومه فى خير مما أخذ منه ، ولذلك أقول دائماً : لو عَلم الظالم ما ادخره للمظلوم من الخير ، لَضنَّ عليه بالظلم .

وعلى فَرْض أن الظالم يتمتع بظلمه ، وهو من متاع الدنيا القليل ، نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ .. ﴿٢٣﴾﴾ [يونس]

وحين نرجع إلى الله تعالى فلا ظُلْم أبداً ؛ لأن أحدكم لن يظلم أو يُظلم ، فكلٌّ منكم سوف يَلْقى ما يُنبئه به الله سبحانه إنْ ثواباً أو عقاباً ، مصْداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس]

وقد جاء الخبر عن نبأ الجزاء من قبل أنْ يقع ، ليعلم الجميع أن لكل فعل مقابلاً من ثواب أو عقاب ، كما أن فى ذكر النبأ مقدماً تقريعاً لمن يظلمون أنفسهم بالبغى .

والحق سبحانه لا يظلم أحداً ، ومِصْداق هذا قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس]

ولكن الحق سبحانه لا يترك الباغى أو الظالم دون أنْ يُعذبه فى الدنيا

ويأخذه بظلمه ، لأنه سبحانه لو تركهم لعقاب الآخرة لاستشرى الظلم ، ولأصبح الذى لا يؤمن بالآخرة مُحترفاً للبغى .

يقول تعالى :

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور]

أى : قبل الآخرة لهم عذاب .

والحق سبحانه يأخذ الظالمين درجة درجة ، فهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ويعطيهم نِعَمه ، ثم يرهقهم بما وصلوا إليه ، فإنه سبحانه يُملى للظالم ويُعليه ، ثم يُلقيه من عَلٍ .

يقول تعالى :

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً(١) فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ(٢) (٤٤)﴾ [الأنعام]

أى : لم نعجل بعقاب الظالمين ، بل تركناهم فتمادوا فى المعصية ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد ، فسبحانه يمدُّ ويملى لهم ليأخذوا وليبنُوا وليترفوا ، وليفرحوا بما أخذوا ، ومن بعد ذلك يفتح الله عليهم أبواب كل شىء .

---

(١) البغت والبغتة : الفجأة . وهو أن يفجأك الشىء . وقد بغته الأمر يبغته : فجئه . والمباغتة : المفاجأة . (لسان العرب ـ مادة : بغت) .

(٢) أبلس من رحمة الله : يئس وندم . والمبلس : اليائس . ولذلك قيل للذى يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب : قد أبلس . والإبلاس : الحيرة . وقال أبو بكر : الإبلاس معناه فى اللغة القنوط وقطع الرجاء من رحمة الله . (لسان العرب ـ مادة : بلس) .

فالحق سبحانه يرفع الظالم إلى درجات عالية ، ثم يخسف به الأرض .

وربُّنا سبحانه يعطى الظالمين الكثير ، ويمدُّهم فى طغيانهم ، ثم يأخذهم أخْذ عزيز مُقْتدر ، وقد دلَّتْ وقائع الحياة على هذا ، ورأينا أكثر من ظالم وجبّار فى الأرض ، والحق يُملى له فى العُلُو ، ويمدُّ له فى هذه الأسباب ، ثم يأخذه أَخْذ عزيز مُقتدر ، ولو بواسطة حارسه .

يقول تعالى :

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا[1] فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)﴾ [هود]

فالترف الذى عاشوا فيه جاء من الظلم والبَغْى بغير الحق ، وأَخْذ حقوق الناس ، وامتصاص دماء الكادحين ، حتى أطغتْهم النعمة ، وأنستْهم المنعم سبحانه ، وقد مدَّ الله لهم فى النعمة .

ويقول تعالى :

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾

[الأعراف]

والإملاء هو الإمهال ، وهو التأخير .

أى : أنه لا يأخذهم مرة واحدة ، فساعةَ يقوم الظالم الفاسد بالكثير من الشرِّ فى المجتمع ، نجد أهلَ الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات .

---

(١) الترف : التنعُّم . والتريف : حُسْن الغذاء . والمترف : الذى قد أبطرته النعمة وسعة العيش ، وهو أيضاً المتنعم المتوسّع فى ملاذ الدنيا وشهواتها . (لسان العرب ـ مادة : ترف) .

وأيضاً ، فـإن الإملاءْ للظالم يجـعل الظالم تزداد مظالمه زيادةً تجـعل الأمة التى يعيش فيها تكره ظُلْمه ، فإذا وقع عليه عذاب ، لا يعطف عليه أحد .

ولذلك يقولـون : لا يموت ظالم فى الدنيا حـتى ينتقمَ الله مـنه ، ومن تمام انتقـام الله من الظالم أن يرى هذا الانتـقام من ظلمـهم هذا الظالم حتى يـشفى نفسه منه .

واعلموا أن الله تعـالى يسمع ويرى ، وأن الله خبيـر لا تَخْفى عليه خـافية ، فلا تـخدعوا أنفـسكم وتحـسبوا أن اللـه يُفلت الظالم ، أو أن الله يَخْفى علـيه شـىء ، أو يُعجزه شىء .

❑❑❑

(٨) موعظة .. الشفاء والهدى والرحمة

إن الله يريد أنْ يُلفِت خَلْقه إلى أنهم إذا أرادوا أنْ يصلوا إلى الهدف الثابت الذى لا يتغير فليأخذوه عن الله. وإذا أرادوا أنْ يتبعوا الطريق الذى لا توجد فيه أىُّ عقباتٍ أو مُتغيرات فليأخذوا طريقهم عن الله.

يقول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]

نحن نعلم أن مُتعلَّقات الربوبية تتوزَّع ما بين قسمين :

القسم الأول : هو مُقوِّمات الحياة التى يعطيها الحق سبحانه من قُوتٍ ورزق ، وهذه المقوِّمات للمؤمن والكافر .

والقسم الآخر : هو مُقوِّمات القِيم التى ترسم منهج حركة الحياة ، وهذه للمؤمن فقط .

وقد وصف الحق سبحانه هنا الموعظة أنها (من ربكم)، فهى قادمة من الرب سبحانه ، أى: أنها من كمالات التربية ، فالموعظة نوع من التربية جاءت

من ربكم المأمون عليكم ؛ لأنه هو الذى خلق من عَدَم ، وأمدَّ من عُدْم ، ولم يختص بنعمة الربوبية المؤمنين فقط ، بل شملتْ نعمته كل الخلق .

لذلك جاء الخطاب هنا للناس جميعاً ، فهم مُخَاطبون بأصول العقائد ، والإيمان الأعلى بالواجد[1] الموجد ، فهذا يكون خطاباً للناس كافّة ، أما المؤمنون فيكون خطابهم لتكليفهم بالتكاليف والأحكام ، مثل قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة]

وقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى .. ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة]

والآية هنا تُصوِّر الموعظة[2] وكأنها تجسدتْ وصار لها مجىء ، رغم أن الموعظة هى كلمات ، وأراد الله تعالى بذلك أن يعطىَ للموعظة صورةَ الحركة التى تؤثر وتحضُّ على الإيمان .

والموعظة هى الوصية بالخير والبُعْد عن الشر بلفظ مُؤثر ، ويُقال: فلان واعظ مُتميّز ، أى: أن كلامه مستميل وأسلوبه مؤثر وجميل .

والموعوظ دائماً أضعف من الواعظ ، وتكون نفسُ الموعوظ ثقيلة ، فلا تتقبل الموعظةَ بيُسْر إلا ممّن يجيد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء ، لأن

---

(١) الواجد ، من أسماء الله عز وجل ، هو الغنى الذى لا يفتقر . وأوجده الله أى : أغناه . (لسان العرب ـ مادة : وجد) .

(٢) الوعظ والعظة والموعظة : النصح والتذكير بالعواقب . قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يُلِّين قلبه من ثواب وعقاب . (لسان العرب ـ مادة : وعظ) .

الموعـوظ قد يقول فى نفـسه : لقد رأيتنى فى مـحلٍّ دونك وتريد أنْ ترفعنى ، وأنت أعلى منى .

فإذا قـدّر الواعظ هذا الظَّرْف فى المـوعوظ فهـو يستـميل نفـسه. ولنتـذكر الحكمة التى تقول :

«النُّصْح ثقيل ، فـلا تجعلوه جَدَلاً ، ولا ترسلوه جَبَـلاً ، واستعيـروا له خِفَّة البيان » .

وذلك لتستميل أُذُن السامع إليك ، فتأتى له بالأسلوب الجميل المقنع الممتع الذى يعجبه ، وتلمس فى نفسه صميم ما ترغب أن يصلَ إليه .

والمـوعظة القادمـة بالمنهج تخصُّ العقـلاء الراشدين ؛ لأن حـركة العـاقل الراشد تمرُّ على عقله أولاً ، ويختار بين البدائل ، أمـا حركة المجنون فهى غير مُرتَّبة ولا مُنسَّقة ، ولا تمرُّ على عقـله ؛ لأن عقله مُخْتَلُّ الإدراك ، وفاقدٌ للقدرة على الاختيار بين البدائل .

ولكن لماذا يُفسِد العاقلُ الاختيارَ بين البدائل ؟

إن الذى يفسد حركةَ اختيار العاقل هو الهوى[1] ، والهوى إنما ينشأ مِمّا فى النفس والقلب .

والحق سبحانه يقول :

---

(١) هوى النفس : إرادتها . والهوى : محبة الإنسان الشىء وغلبته على قلبه . وقال عز وجل : ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات] معناه : نهاها عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصى الله عز وجل . (لسان العرب ـ مادة: هوا) .

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .. ﴿٥٠﴾﴾ [القصص]

فلا أضلَّ مـمَّنْ اتبع هواه بعيـداً عن هدى الله ؛ لأن هوى الإنسـان إنِ التقى مع هوى المشرِّع سبحانه فهو هَوى محمود ؛ لأن الرسول ﷺ يقول:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبَعاً لما جِئْتُ به »[1] .

فهوى النفس ليس مـذموماً على إطلاقه ، إلا إذا خالف أوامر الله سـبحانه. والهوى هو لُطْف الشيء فى النفس والمـيْل إليه ، فالشيء تستلطفـه فى نفسك فتنزع إليه نزوعاً ، وقد يكون غيرَ مُسْتحب أو غيرَ مَقْبول ولا مَشْروع .

إذن : فمن المـمكن أنْ يتجـه الهوى إلى الخـير ، وهو الهوى الـذى يحمل النفس على أنْ يسـيرَ الإنسـانُ تبعـاً للحق ، فالمطلوب أن يُطوِّع الإنـسان هواه لمطلـوب الله ، ومـا دام قـد طوّع هواه لمطلوب الـله ، فـهـذا يـعنى أن هواه الشخصى قد امتنع .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ .. ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]

أى : أنه سبحانه وتعالى قد أنزل عليكم ما يشفى صدوركم من غل يؤثر فى أحكامكم ، وحقد ، وحسـد ، ومكر ، ويُنقِّى باطن الإنسان ؛ لأن أىّ حركة من

---

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/ ١٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، وأورده ابن رجب الحنبلى فى « جامع العلوم» (ص ٤٦٠) وضعَّفه . وقد ذكره ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١٣/ ٢٨٩) من حديث أبى هريرة وقال : « أخرجه الحسن بن سفيان وغيره ورجاله ثقات، وقد صححه النووى فى آخر الأربعين » قلت : الحديث عن ابن عمرو وليس أبا هريرة .

حركات الإنسان لها نبْع وجدانىّ ، ولابُدّ أن يُشْفَى النبع الوجدانى ، ليصحّ ، حتى تخرج الحركات من الجوارح ، وهى نابعة من وُجْدان طاهر مُصفّىً وسليم ، وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة .

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس]

وجاءتْ كلمة «الشفاء» أولاً ، لِتُبين أن الهداية الحقّة إلى الطريق المستقيم تقتضى أنْ تُخرِج ما فى قلبه من أهواء ، ثم تدلّه إلى المنهج المستقيم .

وإنْ سأل سائلٌ عن الفارق بين الشفاء والرحمة ، نجيب :

إن الشفاء هو إخراجٌ لما يُمرض الصدور ، أما الرحمة فهى اتباع الهداية بما لا يأتى بالمرض مرة أخرى .

واقرأ إنْ شئتَ قولَ الحق سبحانه :

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]

ففى القرآن شفاءٌ ورحمة ، أى وقاية وعلاج . والذى يلتزم بمنهج القرآن لا تصيبه الداءاتُ الاجتماعية والنفسية أبداً ، والذى تغفل نفسه وتشرد منه يُصَاب بالداء الاجتماعى والنفسى ، فإنْ عاد إلى منهج القرآن فهو يشفى من أىِّ داء .

فساعة تسمع القرآن ، فهو يشفيك من الداء الذى تعانى منه نفسياً ، ويُقوِّى قدرتك على مقاومة الداء ، ويُفجِّر طاقات الشفاء الكامنة فى أعماقك .

وهو رحمةٌ لك حين تتخذه منْهجاً ، وتُطبِّقه فى حياتك ، فيمنحك مناعةً تحميك من المرض ، فهو طِبٌّ علاجىّ ، وطبٌّ وقائىّ فى آنٍ واحد .

وهكذا يتبيّن لنا أثر الموعظة : شفاء ، وهدى ، ورحمة.

إنها تعالج ليس ظواهر المرض فقط ، ولكن تعالج جذور المرض .

إذن : فشفاء الصدور يجب أنْ يتم أولاً ؛ لذلك نجد الطبيب الماهر هو مَنْ لا ينظر إلى ظواهر المرض فقط ليعالجها ، ولكنه يبحث عَمّا خلف تلك الظواهر ، على عكس الطبيب غير المدرّب العَجُول الذى يعالج الظواهر دون علاج جذور المرض .

ومثال ذلك : طبيب الأمراض الجلدية غير الماهر حين يرى بُثُوراً [1] ، فهو يعالجها بما يطمسها ويزيلها مؤقتاً ، لكنها تعود بعد قليل ، أما الطبيب المدرَّب الفاهم فهو يعالج الأسباب التى تنتج البثور ، ويزيلها بالعلاج الفعَّال ، فيقضى على أسباب ظهورها .

وفى القرآن الكريم نجد قصة ابتلاء سيدنا أيوب عليه السلام [2] ، فقد قال له الحق سبحانه :

---

(١) البثور : خُرَّاج صغار ، وخص بعضهم به الوجه . قال أبو منصور : البثور مثل الجدرى يقبح على الوجه وغيره من بدن الإنسان . (لسان العرب ـ مادة : بثر) .

(٢) ابتلى الحق سبحانه عبده أيوب عليه السلام بالضر فى جسده وماله وولده حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليماً سوى قلبه ، ولم يبق له من الدنيا شىء يستعين به على مرضه وما هو فيه ، غير أن زوجته حفظت ودّه لإيمانها بالله تعالى ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة ، وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسُلب =

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص]

أى : اضـرب برجلك ذلك المكان يخـرج لك منه ماء بـارد ، تغتـسل منه ، فيزيل الأعراض الظاهرة ، وتشرب منه ليعالج أصل الداء[1] .

إذن : فالمـوعظة وكأنهـا تجسّدتْ ، فـجاءت من ربكم ـ المـأمون عليكم ـ شفاء ، حتى تعالج المواجيد التى تصدر عنها الأفعال ، وتصبح مواجيد سليمة مستقيمة ، لا تحلُّل فيها .

وتكون هُدَىً إلى الطريق الموصِّل إلى الغاية الحقَّة .

فالهدى هو الدلالة على طريق يُوصِّلك إلى مـا تطلبه ، فالإشارات التى تدل المـسـافـر على الطريق هى هُدىً له ، لأنهـا تُبـيِّن له الطريـق الذى يُوصِّله إلى المكان الذى يقصده .

والهـدى يتطلب : هادياً ، ومَهْـدياً ، وغاية تريد أنْ تُحـقِّقـها . فـإذا لم تَكُن هناك غاية أو هدف ، فلا معنى لوجود الهدى لأنك لا تريد أن تصل إلى شىء ، وبالتالى لا تريد من أحد أن يدلّك على طريق .

= جميـع ذلك حتى آل به الحـال إلى أن ألقى على مزبلة من مـزابل البلدة هذه المدة بكمـالها . (انظر : تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩) .

(١) قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص] وقال ابن كـثير فى تفـسيره : «أمـره أن يقوم من مقـامه ، وأن يركض الأرض برجله ففعل ، فأنبع الله تعـالى عيناً وأمره أن يغتسل منها فأذهبت جميـع ما كان فيه بدنه من الأذى ، ثم أمره فـضرب الأرض فى مكان آخر فـأنبع له عيناً أخـرى وأمره أن يشرب منهـا ، فأذهبت جميع ما كان فى باطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً » .

إذن: لابُدَّ أن نوجد الغاية أولاً ، ثم نبحث عَمَّنْ يُوصِّلنا إليها .

وهنا نتساءل : مَنِ الذى يُحدِّد الهدف ، ويُحدِّد لك الطريق للوصول إليه ؟

إذا أخذنا بواقع حياة الناس فإن الذى يحدد لك الهدف لابُدَّ أن تكون واثقاً من حكمته ، والذى يُحدِّد لك الطريق لابُدَّ أن يكون له من العلم ما يستطيع به أنْ يدلّك على أقصر الطرق لتصل إلى ما تريد.

فإذا نظرنا إلى الناس فى الدنيا نجد أنهم يُحدِّدون مطلوبات حياتهم ، ويحددون الطريق الذى يحقق هذه المطلوبات ، فالذى يريد أن يبنى بيتاً مثلاً يأتى بمهندس يضع له الرسم ، ولكن الرسم قد يكون قاصراً عن أن يُحقِّق الغاية المطلوبة فيظل يُغيِّر ويُبدِّل فيه ، ثم يأتى بمهندس على مستوى أعلى فيضع تصوراً جديداً للمسألة كلها .

وهكذا يكون الهدف مُتغيِّراً وليس ثابتاً ، وعند التنفيذ قد لا توجد المواد المطلوبة فنغيّر ونُبدِّل لنأتى بغيرها ، ثم فوق ذلك كله قد تأتى قوة أعلى فتوقف التنفيذ أو تمنعه .

إذن : فأهداف الناس مُتغيّرة تحكمها ظروف حياتهم وقدراتهم ، والغايات التى يطلبونها لا تتحقق لقصور علم البشر وإمكاناتهم .

إذن : فكلُّنا محتاجون إلى كامل العلم والحكمة ليرسم لنا طُرق حياتنا ، وأنْ يكونَ قادراً على كل شىء ، ومالكاً لكل شىء ، وأنْ يكونَ الكون خاضعاً

لإرادته ، حتى نعرف يقيناً أن ما نريده سيتحقق ، وأن الطريق الذى سنسلكه سيُوصِّلنا إلى ما نريده .

ويُنبِّهنا الحق سبحانه إلى هذه القضية فيقول :

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ..﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة]

إن الله يريد أنْ يلفتَ خَلْقه إلى أنهم إذا أرادوا أنْ يصلوا إلى الهدف الثابت الذى لا يتغير ، فليأخذوه عن الله .

وإذا أرادوا أنْ يتبعوا الطريق الذى لا توجد فيه أىُّ عقبات أو مُتغيّرات ، فليأخذوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى .

إنك إذا أردتَ باقياً ، فَخُذْ من الباقى .

وإذا أردتَ ثابتاً ، فخُذْ من الثابت .

ولذلك كانت قوانين البشر فى تحديد أهدافهم فى الحياة وطريقة الوصول إليها قاصرةً ، علمتْ أشياء ، وغابتْ عنها أشياء ، ومن هنا فهى تتغيّر وتتبدَّل كل فَتْرة من الزمان .

ذلك أن مَنْ وضع القوانين من البشر له هدف يريد أن يُحقِّقه ، ولكن الله جَلَّ جلاله لا هوى له ، فإذا أردتَ أنْ تُحقِّق سعادة فى حياتك ، وأن تعيش آمناً مطمئناً ، فَخُذِ الهدف عن الله ، وخُذِ الطريق عن الله .

والله قد حدَّد لخَلْقه ولكل ما فى كونه أقصر طريق لبلوغ الكون سعادتَه ،

والذين لا يأخذون هذا الطريق يُتعِبون أنفسهم ، ويُتعِبون مجتمعهم ولا يُحقِّقون شيئاً .

إذن : فالهدف يُحقِّقه الله لك ، والطريق يُبيِّنه الله لك ، وما عليك إلا أنْ تجعلَ مُراداتك فى الحياة خاضعة لما يريده الله .

وقد وصف الحق سبحانه قرآنه ، فقال :

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ(١) فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة]

أى : أن هذا القرآن هُدىً للجميع ، فالذى يريد أن يتقىَ عذاب الله وغضبه يجد فيه الطريق الذى يُحدِّد له هذه الغاية ، فالهدى من الحق تبارك وتعالى للناس جميعاً ، ثم خَصَّ مَنْ آمن به بهُدى آخر ، وهو أن يعينه على الطاعة .

إذن : فهناك هدى من الله لكل خلقه ، وهو أنْ يدُلَّهم سبحانه وتعالى ويبين لهم الطريق المستقيم ، هذا هو هدى الدلالة ، وهو أن يدلَّ الله خَلْقه جميعاً على الطريق إلى طاعته وجنته(٢).

---

(١) الريب : الشك ، والظنة ، والتُّهمة . والريب : ما رابك من أمر وقد رابنى الأمر وأرابنى . (لسان العرب ـ مادة : ريب) .

(٢) للهدى معَانٍ متعددة :

١ـ الدلالة إلى الحق : من نحو قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١٧﴾ [فصلت] فهدايتهم هنا بمعنى إرشادهم إلى طريق الحق والدلالة عليه ، سواء سلكوه أم لا ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا..۝٣﴾ [الإنسان] .

٢ ـ الإعانة والتوفيق فى اتباع الحق : من نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ.. ۝٥٦﴾ [القصص] وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۝٦٩﴾ [العنكبوت] .

أما الرحمة ، فكلنا نعيش برحماتِ الله ، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله ، ويأخذ أسباب حياته برحمة الله ، والنعم والخيرات التى يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله .

والمؤمن يأخذ نِعَم الدنيا برحمة الله ، ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان ، والاطمئنان نعمة كبرى ، فمَنْ يَعِشْ فى هذه الحياة وهو مُطمئِن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لَوْنٌ عظيم من الاطمئنان .

ويقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨)﴾ [البقرة]

إن الدنيا كلها مُسخَّرة تحت قَهْر الرحمن ومشيئته وتسخيره ، وله تمام التصرُّف فى كل الكائنات ، وهو الخالق البديع .

ولكن ، ما هى الرحمة ؟

الرحمة : ألاَّ تُبْتلَى بالألم من أوَّل الأمر .

أما الشفاء : فهو أن تكون مُصَاباً بداءٍ ، ويُبرئك الله منه ، لكن الرحمة هو ألاَّ يأتىَ الداءُ أصلاً .

ولذلك أحب أن أقول ـ دائماً ـ مع إخوانى هذا الدعاء :

« اللهم بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب» .

أى : عاملنا بالفضل لا بالعدْل ، وبإحسانك لا بالميزان .

ولقد علّمنا رسول الله ﷺ أن دخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها ، ولكن بفضل الله ورحمته ومغفرته ، فيقول ﷺ :

«لن يدخلَ أحدكم الجنة بعمله ، فقالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، حتى يتغمدنى[1] الله برحمته »[2] .

إذن : فالمؤمن يرجو الله ، ولا يشترط على الله ، إن المؤمن يتجه بعمله خالصاً لله ، يرجو التقبُّل والمغفرة والرحمة ، وكُلُّ ذلك من فضل الله .

والحق سبحانه قد أوجب على نفسه الرحمة ، فقال :

﴿كَتَبَ[3] رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ[4] ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام]

فتشريع التوبة هو من ظواهر رحمة الله تعالى بعباده الذين يرتكبون الذنوب فى حالة الحماقة والطيش ، ويُقبلون على التوبة فوراً ، هؤلاء يقبل الحق سبحانه توبتهم .

---

(١) تغمده الله برحمته : غمره بها . قال أبو عبيد : يتغمدنى ويلبسنى ويتغشانى ويسترنى بها. (لسان العرب ـ مادة : غمد) .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) كتب : أى : سجّلها وأوجبها على نفسه تفضلاً منه ، وتكرّماً على خلقه .

(٤) الجهالة : أن تفعل فعلاً بغير العلم. (اللسان ـ مادة: جهل) وبجهالة أيضاً، أى: بطيش وسفه وعدم تبصُّر .

والحق سبحانه توَّاب ورحيم ، توّاب يتوب على العُصَاة ، ويغفر لهم ذنوبهم بعد أنْ وقعوا فيها ، أما الرحمة فإنه يرحم بعض خَلْقه فلا يرتكبون أىَّ معصية من البداية ، فالرحمة ألاَّ تقعَ فى المعصية.

والرحمة والرحمن والرحيم ، مُشتقٌّ منها الرحم الذى هو مكان الجنين فى بطن أمه ، هذا المكان الذى يأتيه فيه الرزق ، بلا حَوْل ولا قوة ، ويجد فيه كل ما يحتاج إليه نموّه مُيسَّراً ، رِزْقاً من الله بلا تعبٍ ولا مقَابلٍ .

انظر إلى حُنُوِّ الأم على ابنها وحنانها عليه ، وتجاوزها عن سيئاته وفرحته بعودته إليها .

ولذلك قال الحق سبحانه فى حديثه القدسى :

«أنا الرحمن ، خلقت الرحم ، وشققت لها اسماً من اسمى ، فمَنْ وصلها وصلتُه ، ومَنْ قطعها قطعتُه »[1].

الله سبحانه وتعالى يريد أنْ نتذكرَ دائماً أنه يحنُو علينا ويرزقنا ، ويفتح لنا أبواب التوبة باباً بعد آخر ، ونعصى فلا يأخذنا بذنوبنا ، ولا يحرمنا من نِعَمه ، ولا يُهلكنا بما فعلنا .

ولذلك فنحن نبدأ تلاوة القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم ، لنتذكر

---

(١) حديث قدسى أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ١٩١ ـ ١٩٤) والترمذى فى سننه (١٩٠٧) وقال : حديث صحيح . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٩٤) كلهم من حديث عبد الرحمن بن عوف . وقد شرحه الإمام محمد متولى الشعراوى (رحمه الله) فى كتاب « الأحاديث القدسية » (المجلد الأول ـ صفحة ١١) بتحقيق (عادل أبو المعاطى) ـ نشر :دار الروضة .

دائماً أبواب الرحمة المفتوحة لنا ، نرفع أيدينا إلى السماء ، ونقول : يا ربّ رحمتك ، تجاوزْ عن ذنوبنا ، وسيِّئاتنا .

وبذلك يظلُّ قارىء القرآن مُتصلاً بأبواب رحمة الله ، كلما ابتعد عن المنهج أسرعَ ليعودَ إليه ، فما دام الله رَحْماناً ورحيماً لا تُغلَق أبواب الرحمة أبداً .

فالحقُّ سبحانه رحمانٌ فى الدنيا لكثرة عدد الذين يشملهم الله سبحانه وتعالى برحمته ، فرحمةُ الله فى الدنيا تشمل المؤمنَ والعاصى والكافر ، يُعطيهم الله مُقوِّمات حياتهم ، ولا يُؤاخِذهم بذنوبهم ، يرزق مَنْ آمن به ، ومَنْ لم يؤمن به ، ويعفو عن كثير .

إذن : عددُ الذين تشملهم رحمة الله فى الدنيا هُمْ كل خَلْقه ، بصرف النظرِ عن إيمانهم أو عدم إيمانهم .

أما فى الآخرة فاللهُ رحيمٌ بالمؤمنين فقط ، فالكفار والمشركون مطرودون من رحمة الله .

إذن : الذين تشملهم رحمة الله فى الآخرة أقلُّ عدداً من الذين تشملهم رحمة الله فى الدنيا .

❑❑❑

(٩) ... يقين الداعى

حين يعرض الداعى أمر دعوته على الناس ويترك لهم الحكم ويضعهم فى نقطة الاختيار، فهذه ثقة منه بأن قضايا دعوته إن نظر إليها أىُّ إنسان مُنْصِف فلابُدَّ أن يلتجىء إلى الإيمان بتلك الدعوة .

يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ(١) وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس]

فالحقُّ سبحانه يأمر رسوله ﷺ بأن يعرض على الكافرين قضية الدين ، وأنْ يضعوها فى كِفَّة ، ويضعوا ما يؤمنون به فى الكِفّة المقابلة ، ويترك لهم الحكم فى هذا الأمر .

هم ـ إذن ـ فى شَكٍّ : هل هذا الدين صحيحٌ أم فاسدٌ ؟

والشكُّ ـ كما نعلم ـ معناه : تساوى كِفّة النفى وكِفّة الإثبات ، فإنْ رجحتْ واحدة منهما فهذا ظَنٌّ ، وتكون المرجوحة وَهْماً وافتراءً وكذباً .

---

(١) الوفاة: المنية . والوفاة : الموت . وتُوفّى فلان وتوفّاه الله إذا قبض نفسه . وقال غيره : توفّى الميت استيفاء مدته التى وُفيت له وعدد أيامه وشهوره وأعوامه فى الدنيا . (لسان العرب ـ مادة : وفى) .

وحين يعرض الرسول ﷺ أمر الدين عليهم ويترك لهم الحكم ، فهذه ثقةٌ منه ﷺ بأن قضايا دينه إنْ نظر إليها الإنسان ليحكم فيها ، فلابُدَّ أنْ يلتجىءَ الإنسان إلى الإيمان .

وهذا من نحو قول الله سبحانه على لسان رسوله ﷺ :

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ]

والرسول ﷺ على الهدى بالقَطْع ، وخصومه على ضلال بالقطع ، ولكن رسول الله ﷺ يُسلِّم الأمر طالباً من خصومه أن يراجعوا أنفسهم ليناقشوا القيم التى يدعو إليها الإسلام ، وسيجدون أن قيمَ الإسلام هى الهدى وأنهم على ضلال .

ونعلم أن الهدى والضلال لا يجتمعان ، فنحن كمسلمين على هُدىً ، وأنتم على ضلال ، ووسيلة التمييز أن يُحكِّم الإنسانُ عقلَه فى المسألة ، وبذلك يرى مَنِ الذى على هدى ، ومَنِ الذى على ضلال ، فلا يمكن أن يكون المتناقضان مُحقَّيْنِ .

فأحدهما لابُدّ أن يكون على هُدىً ، والآخر لابُدَّ أنه على ضلال .

وهذا الشكُّ قد واجه كل الرسل من قِبَل أقوامهم بعد أنْ دعوْهُمْ إلى عبادة الله وحده .

يقول تعالى :

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم

مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[1] فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

[هود]

فكان أول شيء طلبه صالح ـ عليه السلام ـ من قومه ثمود أن اعبدوا الله ، وأَمْر عبادة الله وحده مطلوبٌ من كُلِّ أحد ، ولا يسَع أحداً مخالفته ، فهو تقريرُ واقعٍ لا يستطيعون تغييره ، فليس لهم إلهٌ آخَر غير الله ، مهما حاوَلوا ادعاءَ آلهة أخرى .

فماذا كان رَدّ قومه ـ ثمود ـ عليه ؟

يقول الحق عز وجل ما جاء على ألسنتهم :

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود]

فقد كانوا ينظرون إلى صالح ـ عليه السلام ـ بتقدير ورجاء قبل أن يدعوهم لعبادة الله تعالى وحده ، ولا إله غيره ، والمرجوُّ هو الإنسان المؤمّل فيه الخير ، ذكاءً ، وطموحاً ، وأمانة ، وأية خَصْلة من الخصال التى تُبشِّر بأن له مستقبلاً حَسناً.

ولكن ، ما إنْ دعاهم صالح ـ عليه السلام ـ إلى عبادة الله سبحانه وتعالى أعلنوا أنه ـ بتلك الدعوة ـ إنما يُفسِد رجاءهم فيه وما كانوا يأملونه فيه .

---

(١) استعمره فى المكان : جعله يعمره . قال الشيخ الشعراوى (رحمه الله) فى تفسيره لهذه الآية (المجلد ١١/ ٦٥٣٠) بتحقيقى (عادل أبو المعاطى) ـ نشر: أخبار اليوم : « أى: طلب منكم عمارتها، وهذا يتطلب أمرين اثنين: أن يُبقى الناس الأمر الصالح على صلاحه.أو يزيدوه صلاحًا».

وأضاف قوم ثمود :

﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢)﴾ [هود]

إذنْ : فَهُم ليسوا على يقين أن عبادتهم لما عبدَ آباؤهم هى عبادة صادقة ، ودعوة صالح ـ عليه السلام ـ لهم جعلتْهم يترددون فى أمر تلك العبادة ، وهذا يُظْهِر أن خِصالَ الخير فى صالح ـ عليه السلام ـ جعلتهم يترددون فى أمرِ عبادتهم.

ويَحْسِم الحق سبحانه أمْرَ قضية الشرك به ، فيأمر رسوله ﷺ أن يقول :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ..(١٠٤)﴾ [يونس]

ويُثبِّت الحق سبحانه قلب نبيه ﷺ ، فيقول :

﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ(١) (٩٤)﴾ [يونس]

فالحقُّ القادم من الله تعالى ثابت لا يتغير ، لأنه واقع ، والواقع لا يتعدد ، بل يأتى على صورة واحدة ، أما الكذب فيأتى على صور متعددة .

والرسول ﷺ إنما جاء بالقيم التى تهدى إلى الطريق المستقيم ، جاء بالدين الحق ، فالطريق المستقيم هو أقصر الطرق إلى تحقيق الغاية ، فأقصر

---

(١) الامتراء فى الشيء : الشك فيه . وامترى وتمارى : شك . والمرية : الشك والجدل . قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ (١٧)﴾ [هود] والمراء: المماراة والجدل . والمراء أيضاً : من الامتراء والشك . (لسان العرب ـ مادة : مرى) .

طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم ، ولذلك إذا كنتَ تقصد مكاناً فأقصر طريق تسلكه هو الطريق الذى لا اعوجاجَ فيه ، ولكنه مستقيمٌ تمامًا.

ولا تحسب أن البُعْد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير ، بل باعوجاج صغير جداً ، ولكنه ينتهى إلى بُعْد كبير .

ويكفى أنْ تراقبَ قضبان السكة الحديد ، عندما يبدأ القطار فى اتخاذ طريق غير الذى كان يسلكه ، فهو لا ينحرف فى أول الأمر إلا بضعة ملليمترات ، أى أن أول التحويلة ضيقٌ جداً ، وكلما مشيت اتسع الفَرْق وازداد اتساعاً ، بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذى مشيتَ فيه يبعد عن الطريق الأول عشراتِ الكيلو مترات وربما مئات الكيلو مترات .

إذن: فأىُّ انحراف مهما كان بسيطاً يُبعِدك عن الطريق المستقيم بُعْداً كبيراً.

ويقول الحق سبحانه على لسان رسوله وعبده عيسى بن مريم :

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران]

فهذا هو الصراط المستقيم الذى لا التواءَ فيه ، لأن الطريق إذا التوى انحرف عن الهدف ، وحتى تعرف أن الكُلَّ يسير على طريق مستقيم واحد ، فلتعلم أنك إنْ نظرتَ ـ على سبيل المثال ـ إلى الدائرة ، فستجد أن لها محيطاً ولها مركزاً ، ومركزُ الدائرة هو الذى نضع فيه «سِنّ الفِرْجار» حتى نرسم الدائرة ، وبعد ذلك تصل من المركز إلى المحيط بأنصاف أقطار ، وكلما بَعُدْنا

عن المـركز زاد الفـرق ، وكلما نقرب من المركز تتلاشى الفروق .

فإذا ما كان الخَلْق جـميعاً يلتقون عند المركز الواحـد فهذا يعنى الاتفاق ، لكن الاخـتلافَ يحدث بيـن البشر كلـما بَعُدوا عـن المركز ، ولذلـك لا تجد للناس أهـواء ، ولا نجد الناس شِـيَعاً إلا إذا ابتعدوا عن المـركز الجامع لهم ، والمركز الجـامع لهم هو العبودية للإله الواحد ، وما دامت عبـوديته لإله واحد ففى هذا جَمْع للناس ، بِلا هَوىً أو تفرُّق .

لذلك كـان الله هو الحقّ ، فـلا يوجـد فى الكون حَـقَّـانِ ، بل يوجـد حَقٌّ واحد ، وما عـداه هو الضلال ، فلو وجَّهتم الأمـر بالربوبية والعبوديـة إلى غيره تكونون قد ضَلَلْتُم الطريق .

يقول سبحانه :

﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ ..﴿٣٢﴾﴾ [يونس]

ويقول تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج]

فالـله تعالى هو الإله الحقّ ، ومـا عداه من مـعبـودات على اختـلافهـا هى الباطل .

ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى

﴿الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي[1] إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

[يونس]

أى : هل من شركائكم مَنْ يهدى الإنسانَ إلى غايته ؟ هل قالت الشمس مثلاً غايتها ؟ هل قالت الملائكة غايتها ؟ هل قالت الأشجار أو الأحجار أو الرسل الذين عبدتموهم شيئًا غير مُرَاد الله تعالى ؟

إنهم آلهة باطلة لا تعرف الغاية من العابد لهم ، ولا يعرفون الطريق الموصِّل إلى تلك الغاية .

ولذلك يأتى القول الفَصْل : ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ..﴿٣٥﴾﴾ [يونس]

فالله هداكَ أيها الإنسان إلى الحقِّ فى كل حركة تتحركها بالمنهج الذى أنزله الله سبحانه مُكتَمِلاً على رسوله ﷺ من بَدْء «لا إله إلا الله» إلى «إماطة[2] الأذى عن الطريق» ، وهو منهج مُسْتوعِب مُسْتوفٍ لكُلِّ حركات الإنسان .

---

(١) يهدّى : أصلها يهتدى ، قلبت تاء الافتعال دالاً وأدغمت فى الدال حتى اشتقوا منها هدّى يهدّى هدّاء بدون همزة الوصل . والمعنى : هل الله الذى يهدى إلى الحق أحق وأجدر أن تتبعوه أم الآلهة التى تعبدونها ، هذه الآلهة العاجزة التى لا تستطيع أن تهتدى إلى الخير والنفع بنفسها إلا أن يهديها غيرها لعجزها وقصورها لا شك أنها ليست أحق بالاتباع بل الله وحده هو الأحق بالعبادة . (القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/ ٣٠٠) .

(٢) إماطة الأذى : تنحيته وإبعاده ودَفْعه . (لسان العرب ـ مادة : ميط). ومنه حديث رسول الله ﷺ الذى رواه أبو هريرة أنه قال: «الإيمان بضع وسبعون ـ أو بضع وستون ـ شعبة فأفضلها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » . أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٥) قال النووى فى شرحه «المراد بالأذى كل ما يؤذى من حجر أو مدر أو شوك أو غيره » .

وجاءت الإجابة من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ ؛ لأنهم انبهروا بالسؤال وتلجلجوا ، ولم يوجد عند أىٍّ منهم قدرة على المعارضة ، فالغاية من خَلْق الإنسان وغيره يُوجزها قول الحق سبحانه :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]

فالله سبحانه تفرَّد بالألوهية بربوبيته للخَلْق ، لأنه خَلق من عدم ، ورَزق من عُدْم ، وخلق لنا وسائل العلم ودبّر لنا الأمر ، وأخرج الحىَّ من الميت ، وأخرج الميت من الحى ، وهدى للحق .

فأين ـ إذن ـ هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم مع الله تعالى؟

وهل صنع واحد منهم ، أو كلهم مجتمعين شيئاً واحداً من تلك الأشياء ؟

إذن : فالذين أشركوا قد ارتكبوا الإثم العظيم ، وهؤلاء الشركاء إمّا أنْ يكونوا من الملائكة أو من الأنبياء والرُّسُل الذين فُتِن بهم بعضُ الناس .

وهناك مَنِ اتخذ وسائط أخرى مثل : الشمس والقمر والنجوم ، وهذه أشياء عُلوية ، وبعض الناس اتخذوا وسائط سُفْلية كالأشجار والأحجار ، فهل أىُّ شىء من كُلِّ ذلك يهدى إلى الحق ؟ وما منهج أىٍّ منهم إذنْ ؟ وكيف بلَّغوكم به ؟

إن كل هؤلاء يعلمون أن أيّاً منهم لا يستطيع أن يهدى ، بل هو يُهدى من الله سبحانه وتعالى ، فمن أين قلتم إن الملائكة ستهديكم ؟ أو : من أين جاء الذين فُتنوا برسولهم واتخذوه إلهاً ؟ ومن أين جاء هذا الرسول بمنهجه ؟

إن كلّ كائن لا يهدى إلا بعد أن يُهدى من الله أولاً ، وإن كانت الأشياء ـ المتخـذة شركاء ـ لا هدايةَ لها ، ولا منهجَ ، ولا عقلَ ، ولا تفكيـرَ ، كالشمس والقمـر والنجوم فى العُلْـويات ، والأشجار والأحـجار فى السُّفْليات ، فـماذا قالت هذه الأشياء؟

إنها لـم تقُلْ شيئاً .

وهكذا لا يستقيم أمر اتخاذهم شركاءَ مع الله .

لذلك حسـمَ الحقُّ ـ سبحـانه وتعالى ـ أمـر قضيـة الشرك به ، فـقال لنبـيه ﷺ :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس]

أى: أنه ﷺ لا يمكن أنْ يعبـدَ الشركاء وأن يعبد الله ، لأنـه لن يعبد إلا الله .

وقد سبق أن قطع الحق سبحانه هذا الأمر بأن قال لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

[الكافرون]

هذا هو قَطْع العلاقات التام فى تلك المسألة التى لا تقبل المساومة ، وهى العـبادة ، ونـحن نعلم أن العـبادة أمْـر قلبى لا يمكن المـسـاومة فـيـه ، وقَطْع

العلاقات فى مثل هذا الأمر أمرٌ واجب ، لأنه لا يمكن التفاوض حوله ، فهى ليست علاقاتِ ظرفٍ سياسى ، ولكنه أمر ربانى ، يحكمه الحق سبحانه وحده.

فهذا القول الكريم يُشعر مَنْ يسمعه ويقرؤه أنهم سيظلون على عبادة غير الله ، وأن محمداً ﷺ سيظل على عبادة الله .

فقد حاول الكفار أنْ يستميلوا المؤمنين بالحيلة بعد أن فشلت القوة والبطش والإرهاب ، فقالوا : نعبد إلهكم فترة ، وتعبدون إلهنا فترة [1].

فكانت هذه الآيات إعلاناً بمرحلة تتسم بأنه لا مهادنة ولا حلولَ وسط بين الكفر والإيمان ؛ لأنه لو قبل المؤمنون عبادتهم لآلهة الكفار ، فهذا اعترافٌ منهم بأن آلهتهم حقّ ، ولو قبلوا أن يعبدوا الإله الواحد ويشركوا به آلهة أخرى لَكانَ ذلك تفريطاً ، ولا يمكن أنْ يحدثَ ذلك .

وهكذا فشلتْ حيلة الكفار فى تمييع وتضييع قضية الدين ، وضاع مكرُهم ، وبقى الوجود الإيمانى قوياً مُتحداً فى مواجهة جبروت الكفار بعد أنْ كان مُهدّداً .

---

(١) ذكر ابن هشام فى «السيرة النبوية» (١/ ٣٦٢)، والواحدى فى «أسباب النزول» ص ٢٦١ ـ أن رهطاً من قريش (الأسود بن المطلب ، الوليد بن المغيرة ، أمية بن خلف ، العاص بن وائل) قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : ﴿**قل يأيها الكافرون**﴾ إلى آخر السورة ، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك » .

يقول تعالى لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾ [الأنعام]

نحن نعرف أن الرسول ﷺ لم يعبد أىّ صنم قبل الإسلام ، وكان ذلك نابعاً من اقتناع فِطرى ، ومع ذلك جاءه النهى عن مثل تلك العبادة ، لماذا ؟

جاء الأمر بذلك النهى حتى نتبينَ الفرْق بين أمر العادة وأمر العبادة ، فقد علمنا أن رسول الله ﷺ لم يعبد الأصنام استجابةً لفطرته السليمة التى فطره الله وخلقه عليها ، وانتقل ذلك من إلْف الفطرة إلى التكليف العبادى .

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ..(٥٦)﴾ [الأنعام]

لقد كانوا يدعُونَ الأصنام والأوثان ويعبدونها من دون الله ، ولو ناقشنا هذه المسألة فِطْرياً نجد سَخَف هذا اللون من التفكير ، لماذا ؟ لأن الأصنام حجارة كان يقوم بنحتها أهل الجاهلية ويعبدونها .

إذن : فهم قد خَلقوا ما يعبدونه ، وهذا مُنَافٍ للفطرة ، لأن الكائن إنما يتجه بالعبادة إلى خالقه ، إن تحكيم الفطرة فى ذلك الأمر ينتهى إلى حكم واضح ، هو سَخَف هذا اللون من التفكير .

إذن : فمسألة عبادة المشركين للأصنام لا تنبع من هُدى ، ولكنها خضوع إلى هَوى ؛ لأن الهُدى هو الطريق الموصِّل للغاية المعتبرة ، والهوى هو خواطر النفس التى تُحقِّق شهوة .

يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾

[الرعد]

أى : أننى سأعبد الله وحده ، ولن أعطف على عبادته شيئاً ، وسأدعو لعبادته وحده ، وذلك لأنه ﷺ يعلم أنه سيؤوب إليه ، كما سيؤوب إليه كُلُّ إنسان ، فلا أحدَ ينفلتُ من ربِّه وخالقه ، ولا بُدَّ لكل إنسان أن يعد عُدَّته لهذا المآب .

وقد جاء الحق سبحانه بدليل لا مِراء[1] فيه ، وهو دليل قويّ ، وهو أن الحق سبحانه وتعالى وحده هو المستحق للعبادة ، لأنه سبحانه (الذى يتوفاكم) ولا يوجد مَنْ يقدر أو يتأبَّى على قَدَرِ الله سبحانه حين يُميته .

يقول سبحانه :

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

[الزمر]

فالحق سبحانه هنا يسند مسألة قَبْض الروح بالموت إلى الله عز وجل ، وفى آية أخرى ، يسندها لملَكٍ واحد ، فيقول :

---

(١) المراء والمرية: الجدل والشك . وماراه يماريه : ناظره وجادله. قال تعالى : ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف] فلا تجادل أهل الكتاب فى شأن أهل الكهف إلا جدالاً واضحاً يسيراً .

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾

[السجدة]

ومرة يسندها الحق سبحانه إلى رُسُل من المعاونين لملَكِ الموت :

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام]

والحق سبحانه وتعالى صادق فى كل بلاغ عنه ؛ لأن كل أمر يحدد الأجل ليس بمراد الموكّل بإنهاء الأجل ، إنما هو بإذن من الله تعالى الذى يحدد ذلك[1].

وما دام كل أمر قد صدر منه ، فهو سبحانه الذى يتوفّى الأنفس ، وبعد ذلك فالملَك الذى يتوفّى الأنفس ـ عزرائيل ـ له أعوان[2] ، فهو عندما يتلقى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشر كل واحد مهمته .

إذن : فصيرورة الأمر بالموت نهائياً إلى الله ، وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله ، هذا هو الإذن ، والإذن يقتضى مأذوناً ، والمأذون هم

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٥٨) عن جعفر بن محمد قال سمعت أبى يقول : نظر رسول الله ﷺ إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبى ﷺ : «يا ملك الموت ، ارفق بصاحبى فإنه مؤمن . فقال ملك الموت : يا محمد طب نفساً وقرّ عيناً فإنى بكل مؤمن رفيق ، والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها» .

(٢) «سُمى ملك الموت فى بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور. قاله قتادة وغير واحد وله أعوان ، وهكذا ورد فى الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت» قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٥٨) .

ملائكة الموت الذين أَذِن لهم مَلَكُ الموت بذلك ، ومَلَكُ الموت تلقّى الإذن من الله سبحانه وتعالى .

فإذا ما أطلق الحق سبحانه هذه الأساليبَ الثلاثةَ فى وَصْف عملية الوفاة ، فهو إيضاحٌ لمراحل الولاية التى صنعها الله ، فهو الآمر الأعلى يصدر الأمر إلى عزرائيل ، وعزرائيل يُطلِق الأمر لجنوده .

ويأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ ، فيقول :

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا[1] وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾ [يونس]

وهذا الخطاب ليس مُوجّهاً لرسول الله ﷺ فقط ، ولكنه مُوجّه لكُلِّ مؤمن ، وإذا ما عبد المؤمن الله سبحانه فهو يستقبل أحكامه ، ولذلك يأتى الأمر هنا بألاّ يلتفتَ وجه الإنسان المؤمن إلى غير الله تعالى ، فيقول الحق سبحانه :

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا . . (١٠٥)﴾ [يونس]

فلا يلتفت فى العبادة يميناً أو يساراً ، فما دام المؤمنُ يعبد الله ولا يعبد

(١) حنف : مال . قال تعالى : ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (١٣٥)﴾ [البقرة] أى : مائلاً إلى ملة إبراهيم عاطفاً عليها محباً لها، وقوله : ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ (٣١)﴾ [الحج] أى : مائلين لله مطيعين له مؤمنين به محبين له .

غيره ، فليعلم المؤمن أن هناك ـ أيضاً ـ شِرْكاً خفياً ، كأن يعبدَ الإنسانُ مَنْ هم أقوى أو أغنى منه ، وغير ذلك من الأشخاص التى يُفتَنُ بها الإنسان .

والمشرك من هؤلاء لحظةَ أنْ عبدَ الصنم ودعاه من دون الله تعالى فهل استجاب له ؟ وحين عبده هل قال الصنم له : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

إن الأصنام التى اتخذها المشركون آلهةً لم يكُنْ لها منهج ، ولا أحد منها ينفع أو يضر ، وحين يجىء النفع لا يعرف الصنم كيف يمنعه ، وحين يجىء الضُّر لا يقدر الصنم أنْ يدفعه .

إذن : فمَنْ يدعو من دون الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو دعاء لمن لا ينفع ولا يضرّ .

ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) ﴾ [يونس]

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الناس ودعاهم إلى الإيمان به ، وأن يُحبوه ، لأنه يحبهم ويعطيهم ، ولا يأخذ منهم ، لأنه سبحانه فى غِنىً عن كل خَلْقه .

❑❑❑

(١٠) ... الهدى .. والضلال

الحق سبحانه غنىٌ بذاته وصفاته وأفعاله عن كل مخلوقاته ، فهو سبحانه لا يستفيد من خلقه ، بل الفائدة كلها لصنعته التي يريدها سعيدة ، فكل المنهج جاء لصالح الصنعة ، فالذى يهتدى فلنفسه ، ومن يضل فعليها .

يقول الحق سبحانه :

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾

[الأعراف]

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر :

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨)﴾ [يونس]

المعركة الخاصة بقضية الهداية والإضلال قائمةٌ من قديم ، ولا تزال أيضاً ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن ، وأوضحنا هذه القضية فى مواضعَ متعددة ، ولكننا نكررها للتأكيد ولتستقر فى الأذهان ، لأن هناك دائماً مَنْ يقول : إذا كان الله هو الهادى والمضلّ ، فلماذا يُعذِّبنى إنْ ضللْتُ ؟

وشاع هذا السؤال ، وأخذه المستشرقون والفلاسفة ، ويُراد منه إيجاد مُبرر للنفس العاصية غير الملتزمة ، ونقول لكل مجادل :

لماذا قصرْتَ الاعتراضَ على مسألة الضُّرِّ والعذاب إنْ ضللت ؟

ولماذا لا تذكر الثوابَ إنْ أحسنتَ وآمنتَ ؟

إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليلٌ على أن الهداية التى جاءت لك هى مكسب تركته ، وأخذت المسألة التى فيها ضرر ، ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم .

وهم قد ناقشوا مسألة «خَلْق أفعال العباد» ، وتساءلوا : مَنْ خلق هذه الأفعال؟ هل خلقها الله أم أن العبد يخلق أفعاله ؟ ونسأل : ما هو الفعل ؟

إنه توجيه طاقة لإحداث حدث ، فطاقة اليد أنها تعمل أىّ عمل تريده منها ، قد تضرب بها إنساناً ، أو تحمل بها إنساناً واقعاً على الأرض ، أو تُربِّت بها على اليتيم .

إذن : ففى اليد طاقة تصلح لأن تفعل الخير وتفعل الشر ، وأنت لحظةَ أنْ تضرب إنساناً ، فأىّ عضلة تحركها حين ترتفع اليد لتضرب ؟ إنك بمجرد رغبتك فى أن تضرب ، تضرب ، عكس الإنسان الآلى حين يرفع شيئاً ، فله أجزاء وأزرار تعمل ، وكلها آلات .

وأنت حين تُربِّت على كتف يتيم ، ما هى الأعضاء والأجهزة التى تُحركها لتعمل هذا العمل ؟

إذن : فالله هو الذى خلق فيك الانفعال للفعل ، فإنْ نظرتَ إلى ذلك ، فكلٌ فعل من الله ، ولكن توجيه الجارحة[1] إلى الفعل هو محلّ التكليف .

إذن : فأنت تُحاسَب لأنك فعلتَ ، لا لأنك خلقْتَ ؛ لأن خالق الأفعال هو الله سبحانه وتعالى ، وأنت تفعل بمجرد الإرادة والاختيار ، مثل اللسان فيه طاقة مخلوقة لبيان ما فى النفس ، إنْ أردتَ أن تقول «لا إله إلا الله» صَلُحَتْ ، وصَلُحَت كذلك عند الملحد أن يقول ـ والعياذ بالله ـ لا يوجد إله . واللسان لم يعْصِ فى هذه ولا فى تلك .

إذن : فالذى خلق قدرة الجارحة على الفعل هو الله ، وأنت تُوجّه الجارحة . إذن : فكلُّ الأفعال مخلوقة لله ، لكن توجيه الطاقة للفعل بالميل والاختيار إنما يكون من العبد .

والحق سبحانه وتعالى يهدى الجميع بالمنهج ، ومَنْ يُقبل عليه بنيّة الإيمان يُعينه على ذلك ، ولذلك لا يصح أن نختلف فى مسألة مثل هذه ، وأن نسأل مَنْ خلق الأفعال ، بل علينا أنْ نُحدِّد الأفعال وكيف تُوجد ، وما دَوْر الإنسان فيها ؛ لأننا نعلم أن الله قد يسلب طاقة الفعل على الأحداث ، مثل مَنْ يريد أن يؤذى إنساناً بيده ، لكنه يُصَاب بشَلَل فلا يقدر أن يرفعَ يده ، ولو كان هو الذى يخلق لرفع يده وآذى بها مَنْ أراد ، لكنه لا يخلق الطاقة الصانعة للفعل .

---

(١) جوارح الإنسان : أعضاؤه وعوامل جسده كيديه ورجليه ، واحدته جارحة ، لأنهن يجرحن الخير والشر أى يكسبنه . (لسان العرب ـ مادة : جرح) .

وعلى ذلك تكون الهداية نوعين : هداية دلالة ، وهداية معونة .

أما هداية الدلالة فهى للجميع ، للمؤمن والكافر ؛ لأن الحق سبحانه لم يدلّ المؤمن فقط ، بل يدلّ المؤمن والكافر على الإيمان به .

فمن يُقبل على الإيمان به سبحانه ، فإن الحقّ تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة ، فيهديه هداية المعونة ، فيأخذ بيده ويُعينه ، ويجعل الإيمانَ خفيفاً على قلبه ، ويعطى له طاقةً لفعل الخير ، ويشرح له صدره ، ويُيسِّر له أمره .

فمَنْ شاء له الله الهداية يعطيه الهداية ، ومَنْ شاء له الضلال زاده ضلالاً ، وقد بيّن سبحانه أن مَنْ شاء هدايته يهتدى ، وهذه معونة من الله ، والكافر لا يهتدى ، وكذلك الظالم والفاسق ؛ لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره ، وهكذا يمنع سبحانه وتعالى عنهم هداية المعونة .

ويقول الحق سبحانه مُوضِّحاً هذه المسألة :

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ[1] فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ..﴿١٧﴾﴾ [فصلت]

فالهداية التى كانت لقوم ثمود إنما هى هداية الدلالة ، وليست هداية المعونة.

فهداية الدلالة هى الهداية العامة ، وهى أساس البلاغ عن الله ، فقد بيّن لنا الله تبارك وتعالى فى منهجه بافعل ولا تفعل ما يُرضيه وما يُغضبه ، وأوضح لنا

---

(١) ثمود : قبيلة من العرب الأُوَل . ويقال : إنهم من بقية عاد ، وهم قوم صالح عليه السلام ، بعثه الله إليهم ، وهو نبى عربى . (لسان العرب ـ مادة : ثمد) .

الطريق الذى نتبعه لنهتدى ، والطريق الذى لو سلكناه حقّ علينا غضبُ الله وسَخَطه .

ولكن ، هل كل مَنْ بيّن له الله سبحانه وتعالى طريق الهداية اهتدى ؟

نقول : لا ، فهناك مَنْ لا يأخذ طريق الهداية بالاختيار الذى أعطاه الله له ، فلو أن الله سبحانه وتعالى أرادنا جميعاً مَهْديين ما استطاع واحد من خَلْقه أنْ يخرج على مشيته[1] .

ولكنه جَلَّ جلاله خلقنا مختارين لنأتيه عن حُبٍّ ورغبة ، بدلاً من أن يقهرنا على الطاعة .

ما الذى يحدث للذين اتبعوا طريقَ الهداية ، والذين لم يتبعوه وخالفوا مُرَاد الله الشرعى فى كَوْنه ؟

الذين اتبعوا طريق الهداية يُعينهم الله سبحانه وتعالى ، ويُحبِّبهم فى الإيمان والتقوى ، ويُحبِّبهم فى طاعته ، واقرأ قوله تبارك وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]

أى : أن كُلَّ مَنْ يتخذ طريق الهداية يُعينه الله عليه ، ويزيده تقوى وحُباً فى الدين ، فمَنْ ذهب إلى رِحَابه وآمن به أعطاه الله هداية ثانية .

---

(١) يقول تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام] ويقول أيضاً: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل] .

إن الحق سبحانه يعطيهم حلاوة الهداية ، وهى التقوى ، كأن الحق سبحانه يقول للعبد المؤمن : مَا دُمْتَ قد أقبلتَ علىّ بالإيمان فَلكَ حلاوة الإيمان .

فإذا امتثل المؤمنُ لمنهج الله وأطاعه ، فالحقُّ ـ عَزّ وجَلَّ ـ يشرح صدره بذلك ، ويُحبِّب الطاعة إليه ، فيزداد طاعةً .

أما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه ، فإن الله تبارك وتعالى يتخلّى عنهم ويتركهم فى ضلالهم وغيّهم وكفرهم .

أى : أنه ما دام هناك مَنْ لم يؤمن بالله فهل يُمسِك الله بيده ليهديه هداية المعونة ؟

لا ، لأنه إذا لم يؤمن بالأصل وهو هداية الدلالة ، فكيف يمنحه الله هداية المعونة ؟

وما دام لم يؤمن بالله ، أكان يُصدِّق التيسيرات التى يمنحها الله له ؟

والحق سبحانه قد بيّن لنا المحرومين من هداية المعونة على الإيمان ، وهم ثلاثة ، كما بيّنهم لنا فى القرآن :

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)﴾ [النحل]

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾ [المائدة]

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة]

إذن : فالمطرودون من هداية الله فى المعونة على الإيمان ثلاثة ، هم :

ـ الكافرون .

ـ الفاسقون .

ـ الظالمون .

* أما الكافر فعدم هداية الله له لم تنصبّ عليه كإنسان ؛ لأن كُفْره سبق عدم هدايته ، فهو لم يكفر لأن الله لم يَهْده ، وإنما الله لم يَهْدِه لأنه كافر ، فكُفْره سابق على عدم هدايته .

ولذلك قال تعالى عنهم :

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ[1] اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النحل]

ومعنى أن الله تعالى طبع على قلوبهم أن ما فيها من الكفر لا يخرج ، وما هو خارجها من الإيمان لا يدخل.

فسبحانه وتعالى ـ إذن ـ هو الذى طبع على قلوبهم ، ولكن بعد أن ملأوا قلوبهم بالكفر ونافقوا[2]، وهم الذين تسببوا بهذا الطبع لأنفسهم ، بعد أنْ

---

(١) طبع الله على قلبه: ختم. ويقال: طبع الله على قلوب الكافرين، أى: ختم فلا يعى وغطّى ولا يُوفّق لخير. قال أبو إسحاق النحوى: معنى طبع فى اللغة وختم واحد، وهو التغطية على الشىء والاستيثاق من أن يدخله شىء . (لسان العرب ـ مادة : طبع) .

(٢) سمى المنافق منافقاً للنفق وهو السرب فى الأرض. وقيل: إنما سمى منافقاً لأنه نافق كاليربوع وهو دخوله نافقاءه. والنفاق: الدخول فى الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر. وإظهار غير ما فى الباطن. (لسان العرب ـ مادة : نفق) .

بدأوا بالكفر ، فطبع الحق سبحانه وتعالى على قلوبهم بما فيها من مرض ، ولو لم يبدأوا بالكفر لما طبع الله على قلوبهم .

وساعة يُنسب الطبع إلى الله يكون أقوى طَبْع على القلوب ، ويأتى الطبع من الله سبحانه وتعالى كَحُكْم نهائى من أن الله قضى عليهم به ، فلا يخرج من قلوبهم ولو كان قَدْراً ضئيلاً من النفاق ، ولا تغادر قلوبهم ذرّة من كفر ، ولا يتسرب إلى قلوبهم ذرة من إيمان ؛ لأنهم لا يعلمون قَدْر الإيمان الحق .

فما دام الكافر قد أعجبه كفر قلبه ، فالحق سبحانه يختم على قلبه ، تماماً كما تختم الشيء بالشمع الأحمر ، فلا ينفتح قلبه للإيمان ، وستظل قلوبهم محتفظة بالكفر .

ولكن .. لماذا يختم ويطبع الله جَلَّ جلاله على قلوبهم؟

لأن القلب هو مكان العقائد ، ولذلك فإن القضية تُنَاقَش فى العقل ، فإذا انتهت مناقشتها واقتنع بها الإنسان تماماً فإنها تستقر فى القلب ، ولا تعود إلى الذهن مرة أخرى ، وتصبح عقيدة وإيماناً .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج]

وإذا عَمِى القلب عن قضية الإيمان ، فلا عَيْنٌ ترى آيات الإيمان ، ولا أذنٌ تسمع كلام الله .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ[1] وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة]

ونقول: أهى القلوب خُلقت غلفاً.. أى: أن القلوب خُلِقَتْ مختُوماً عليها بحيث لا يدخلها هُدًى ولا يخرج منها ضلال ، أم أنتم الذين فعلتم الخَتْم وأنتم الذين صنعتُم الغلاف والخَتْم؟

وسبحانه أوضح فى آيتى سورة البقرة أنه جَلَّ وعلاَ الذى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، فالختْم على القلب حتى لا يتعرفوا إلى الدليل ؛ لأن القلبَ محلُّ الأدلة واليقين والعقائد .

والخَتْم على الأسماع والأبصار هو الخَتْم على آلاتِ إدراك الدلائل البينات على وجود الحقّ الأعلى ، فمقرّ العقائد مختومٌ عليه وهو القلب ، ومضروب على الآذان وعلى البصر غشاوة ، فهل هذا كائنٌ بطبيعة تكوين هؤلاء ؟

لا ، لأنه إذا كان هذا بطبيعة التكوين ، فلماذا خَصَّهم الله بذلك التكوين ؟

ولماذا لم يكُنِ الذين اهتدوا مختوماً لا على قلوبهم ، ولا على أسماعهم ، ولا على أبصارهم ؟

غير أن الواحد منهم يُبرّر لنفسه وللآخرين انحرافه وإسرافه على نفسه

---

(١) الغشاء والغشاوة: الغطاء . والغشاوة: ما غشى القلب من الطبع. وغشّاه تغشية إذا غطاه . (لسان العرب ـ مادة : غشى) .

بالقول «خلقنى الله هكذا»(١).

وهذا قول مُزيَّف وكاذب ؛ لأن صاحبه إنما يكفر أولاً ، فلما كفر وانصرف عن الحق تركه الله على حاله ؛ لأن الله أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن اتخذ مع الله شريكاً فهو للشريك وليس لله.

إذن : فالختْم جاء كنتيجة للكفر.. فهم إذن سبقوا بالكفر فلم يَهْدِهم الله .

ـ أما الفاسقون فقد قال عنهم الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨)﴾ [المائدة]

والفسق هو الخروج عن الطاعة ، وهى مأخوذة من الرُّطَبة ، فالبلح قبل أن يصبح رُطَباً لا تستطيع أن تنزع قشرته ، ولكن عندما يصبح رُطَباً تجد أن القشرة تبتعد عن الثمرة ، فيقال: فسقت الرُّطبة ، ولذلك مَنْ يخرج عن منهج الله يُقال له : فاسق .

فهو ينسلخ عن منهج الله بسهولة ويُسْر ، لأنه غير ملتصق به ، وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه ، فلا تُؤدِّى الصلاة مثلاً ، وتفعل ما نهى الله عنه لأنك فسقْتَ عن دينه .

والذى أوجد الفسْق هو أن الإنسان خُلِق مُخْتاراً ، قادراً على أن يفعل أو لا يفعل ، وبهذا الاختيار أفسد الإنسانُ نظامَ الكون ، فكلُّ شىء ليس للإنسان

(١) وذلك مثل قول المشركين الذى حكاه رب العزة سبحانه : ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.. (١٤٨)﴾ [الأنعام] .

اختيار فيه تراه يؤدى مهمته بدقة عالية كالشمس والقمر والنجوم والأرض .

كلها تتبع نظاماً دقيقاً لا يختلُّ لأنها مقهورة ، ولو أن الإنسان لم يُخْلَق مختاراً لكان من المستحيل أن يفسُقَ ، وأن يبتعد عن منهج الله ويُفسِد فى الأرض ، ولكن هذا الاختيار هو أساس الفساد كله .

والحق سبحانه يقول :

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة]

وحين ينفى الحق سبحانه الهداية عن الفاسق ، فليس معنى هذا أنْ يقولَ الفاسق : الله لم يَهْدِنى فماذا أفعل؟ ويُحمّل المسألة كلها لله ، بل نسأل الفاسق : لماذا لم يَهْدِك؟ لأنك فسقتَ.

إذنْ : فعدم الهداية من الله لك كان بسبب أنك أخذتَ طريق الفِسْق والبُعْد عن منهج الله ، ومن هنا فالهداية المقصودة فى هذه الآية ، ليستْ هى الهداية بمعنى الدلالة على طريق الخير ؛ لأن الدلالة إلى طريق الخير تأتى من الله للمؤمن والكافر .

* أما الظالمون ، فقد قال الحق سبحانه :

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [آل عمران]

فهؤلاء ارتكبوا الظلم الأصيل ، وهو الشرك بالله ، والحق سبحانه عندما يتركهم فإنه يزيدهم ضلالاً ، ويختم على قلوبهم ، فلا يعرفون طريقاً إلى الإيمان.

لقد جاءهم الرسول بالآيات الدّالة على صِدْق رسالته ، ولكنهم ظلموا أنفسهم الظلم الكبير العظيم ، وهو الشرك بالله.

فأعلى مراتب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ، ذلك أن الإنسانَ حين يظلم إنساناً آخر ويأخذ منه شيئاً ليعطيه لآخر ، فهل هناك إنسانٌ يقدر على أنْ يأخذَ من الله شيئاً ؟

لا ، فالإنسان لا يستطيع أن يظلم الله ، لكنه ينال عقوبة الشرك ، وهذا ظُلْم خائبٌ للنفس ، والذى يشرك بالله لا يأخذ إلا الخسار ، وذلك هو كل الخيبة .

لأن الظلم حينما يحقق للظالم نَفْعاً فهو ظُلْم هيّن ، ولكن الظلم العظيم هو أن يشرك إنسان بالله ، ولا يأخذ إلا العقاب الصارم ، فإذا كان المشرك يتأبّى على منهج الله فى الأشياء ، فهل يجرؤ على أن يتأبّى على قَدَريات الله غير الاختيارية فيه ، كالموت مثلاً ؟

والحق يأمر الإنسان بالإيمان ، ومتعلقات الإيمان من شهادة بوحدانيته ، وإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت مَنِ استطاع إليه سبيلاً .

والمشرك يتأبّى على الإيمان والتكاليف ، فهل يجرؤ على التأبِّى على المرض أو الموت ؟

لذلك فهو يظلم نفسه ظُلْماً خائباً ، والحق سبحانه لا يهديه ؛ لأن معنى الهداية هو أنْ يجد الإنسانُ مَنْ يدلُّه على الطريق الموصِّل للغاية ، فهداه أى دلّه على الطريق الموصِّل للغاية .

ولا يتجنّى سبحانه على خَلْقه فلا يهديهم ، بل الذين ظلموا أنفسهم ولم يؤمنوا هم الذين لا ينالون عناية الحق سبحانه وتعالى باختيارهم .

فالحقُّ تبارك وتعالى ينفى ما يستوجب الهداية عَمَّنْ ظلم أو فسق أو كفر؛ لأن الحق سبحانه لا يهدى مَنْ قدّم الكفر ، أو قدّم الظلم ، أو قدّم الفِسْق .

فكأن الكافر أو الظالم أو الفاسق هو الذى يمنع الهداية عن نفسه ، ولو قدم الإنسانُ الإيمانَ لدخلَ فى هداية الله تعالى ، فكأن خروج الإنسان عن مشيئة هداية الله هى مسألة من عمل الإنسان وباختياره .

فقد يختار الإنسانُ طريقَ الغواية ، ويترك طريق الهداية ؛ لذلك لا يهديه الله ؛ لأنه سبحانه لا يهدى إلا المؤمن به ، وإن اختار الإنسان طريق الهداية فالحق سبحانه يعطيه المزيد من الهدى ، لأنه آمنَ بالله ، فاختار طريق الهداية ، واستقبل منهج الله بالرِّضى .

وهكذا نفهم قَوْل الحق تبارك وتعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴿٨﴾﴾ [فاطر]

فالذين يقرأون القرآن لِفَهْم قضية الهداية عليهم أن يستقرئوا كُلّ الآيات المتعلقة بالموضوع .

فسبحانه وتعالى قد أوضح أنه لا يهدى الكافر ، إذنْ: فهو يهدى المؤمن .

وأوضح أنه لا يهدى الظالم . إذن : فهو يهدى العادل .

وأوضح أنه جَلَّ وعلاَ لا يهدى الفاسق. إذن: فهو يهدى الطائع.

فلا يقولَنَّ أحد: إن الله لم يَشَأْ أنْ يهدينى ؛ لأن هذا فَهْم خاطئ لمعنى الهداية من الله ، فسبحانه وتعالى قد بيَّن لنا مَنْ شاء هدايته ، ومَنْ شاء إضلاله .

وهو سبحانه يهدى مَنْ قدَّم أسباب الهداية ، وأسلم مقاليد زمامه للإيمان .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا(١) كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ(٢) عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (١٢٥)﴾ [الأنعام]

وهذه هداية المعونة ، وهى للذى آمن ، ويصبح أَهْلاً لمعونة الله ، بأن

(١) حرج صدره : ضاق فلم ينشرح لخير . والحرج فى اللغة: أضيق الضيق ، ومعناه أنه ضيق جداً. (لسان العرب ـ مادة : حرج) .

(٢) الرجس: يُعبر به عن الحرام والفعل القبيح والعذاب واللعنة والكفر.(لسان العرب ـ مادة: رجس).

يُخفِّف عنه أعباء التكاليف ويُيسرها له ، ويجعله يعشق كل الأوامر ويعشق البُغْض والتجافى عن كل النواهى .

يقول بعض الصالحين :

«اللهم إنِّى أخاف ألاَّ تثيبنى على الطاعة ، لأنِّى أصبحتُ أشتهيها » .

كأنه عَشِق الطاعة بحيث لم يَعُدْ يجد فيها مشقة أو تكليفاً ؛ لذلك فهو خائف . وكأنه قد فهم أنه لا بُدَّ أن تُوجد مشقة .

ولمثل هذا الإنسان الصالح أقول :

لقد فقدتَ الإحساس بمشقة التكليف ؛ لأنك عشقتَه ، فألفْتَ العبادة كما ألفتْكَ وعشقتْكَ ، وحدثَ الانجذاب بينك وبين الطاعة . وجعلت رسول الله ﷺ مثلاً لك وقُدْوة ، فقد كان ﷺ يرى أنه إذا نُودِى إلى الصلاة يقوم الناس إليها كُسَالى ، لكنه ﷺ يقول لبلال حينما يأتى وقت الصلاة :

«أرحنا بها يا بلال» (١).

وهذا غير ما يقوله بعضٌ مِمَّنْ يؤدون الصلاة الآن ، حيث يقول الواحد منهم : هيّا نُصلِّى لِنُزيحها من على ظهورنا ، وهؤلاء يُؤدُّونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق .

أما الذين أَلِفُوا الراحة بالصلاة حينما يحزُبهم ويشتدّ عليهم أمر خارج عن

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٦٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

نطاق أسبابهم. فيقول الواحد منهم : ما دامت الصلاةُ تُريح القلب فلأذهب إليها وأَلْقى ربى زائداً على أمر تكليفه لى مُتقرِّباً إليه بالنوافل .

ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر قام إلى الصلاة [1]، ومعنى حَزَبه أن الأسباب البشرية لا تنهض به ، فيقوم إلى الصلاة ، وهذا أمر منطقىّ ، ولله المثَلُ الأعلى .

إذن: فعشْق التكليف شىءٌ يدلُّ على أنك ذُقْتَ حلاوة الطاعة ، أى : يصبح مَا يشتهيه مُوافقاً لمنهج الله ، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نِعْم العبد السوىّ .

إذن: فمعنى قوله تعالى :

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ.. ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام]

أى : يجعل الأمور التى يظن بعضٌ من الناس أنها مُتعِبة ، فإنه بإقباله عليها وعشْقه لها يجدها مريحة ، ويُقبِل عليها بشوق وخشوع .

إذن: فالحق سبحانه قد هدى المؤمن والكافر إلى طريق الإيمان ، فَمَنِ اتخذ طريقَ الإيمان أعانه الله تعالى عليه ، ومَنِ اتخذ طريق الكفر ـ والعياذ بالله ـ تركه الله يُعانى ويضِلّ .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ إذا خربه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩).

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً(١) ضَنكًا .. ﴿١٢٤﴾﴾ [طه]

أى : أن حياته تمتلئ بالهموم والمشاكل ، لأنه يخالف منهج الله ، وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لَقَال الناس : خالفنا منهج الله وفلحنا ، ولذلك كان لابُدّ أن تُوجد المشاكل لتنبهنا أن منهج الله يجب أنْ يُسيِّطر .

والحق سبحانه وتعالى أنزل لنا المنهج القويم ليجعل حركة حياتنا مُتسانِدة ، فإن اتبعنا المنهج صِرْنا نأخذ الأوامر من إله واحد ، وصار كل منّا مُكلّفاً بالتعاون مع غيره ، وهذا لن يحدث إلا إذا استجبنا لما يدعونا الله إليه تشريعاً والرسول بلاغاً ، وبهذا تتساند الحياة ، وتصبح حياة لها طعم ، وينطبق عليها قول الحق تبارك وتعالى :

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل]

فالذى يُقيِّد حركته بمنهج الله يأخذ اطمئناناً فى الدنيا ونعيماً مُقِيماً لا يزول ولا ينتهى فى الآخرة ، فالحياة الطيبة فى الدنيا وعدم الضلال والشقاء مُتحقِّقان لمن اتبعَ منهج الله تعالى .

ولذلك يقول تعالى :

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ .. ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس]

---

(١) المعيشة الضنك: الضيقة. وكل عيش من غير حلّ ضنك وإن كان واسعاً. وقال أبو إسحاق: الضنك أصله فى اللغة الضيق والشدة. (لسان العرب ـ مادة : ضنك) .

لأن حصيلة هدايتـه لا تعود على مَنْ خَلَقه وهداه ، بلِ تعود عليـه هو نفسه انسجـاماً مع الكون ، وإصلاحـاً لذات النفس ، وراحةَ بال واطمئناناً ، وانتـباهاً لتعمير الكون بما لا يفسد فيه.

ويقول الحق سبحانه عن فريضة الحج :

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران]

وقد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : ومن كفر فإن الـله غنى عنه؟ وقال:

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران]

ونقول : إن الله غنيّ عن كـل مخلوقاته ، وإياك أنْ تفـهمَ أن الذى لم يكفر وآمن ، وأدَّى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعةً لله .

إن الله غنـىّ عن الذى أدَّى ، وعن الذى لم يُؤدِّ ، إيـاك أن تظن أن مَنْ أدّى قد صنع لله معـروفاً ، أو قدّم لله يَدًا[1]، فإن الله غـنى عَمَّن لا يفعـل ، وعمّن يفعل .

فأمْـر الله لك بافعل كـذا ولا تفعل كذا إنمـا يريد تعالى صـلاح نفسك فى ذاتـها ، فهو لن يسـتفيد منك شيئاً ، فـأنـت إنْ صلحـت أو عصيت فلـن تزيـد أو تنقص من مُلْك الله تعالى شيئاً .

(١) اليد هنا بمعنى الفضل والنعمة .

فالحق سبحانه لا يستفيد من خلقه ، بل الفائدة كلها لصنعته التى يريدها سعيدة ، فكل المنهج جاء لصالح الصنعة ، فالذى يهتدى فلنفسه ، ومن يضل فعليها .

ولذلك قال تعالى :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١)﴾ [الزمر]

❑❑❑

(١١) ... زلزلة الساعة

اليوم العظيم ، يوم الدين ، يوم القيامة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم تُرَجَ الأرض رجًا ، ذلك يوم الحساب الذى يحتاج من البشر وقفة بل وقفات مع أنفسهم لتتحقق تقوى الله والخشية منه ، باتباع منهجه سبحانه .

يقول الحق سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ[1] كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج]

فالأرض ستتزلزل وترتج يوم القيامة بصورة رهيبة لم يعرفها أحد من قبل، ويعطى الله فى كونه من كونيات الحياة ما يثبت صدق هذا الفزع ، فيجعل الأرض تُحدِث نوعاً من الزلزال ، فتُهدم بيوت وبلاد ، ويموت الناس ، ويحدث الفزع بين الناس.

هذه الأشياء جعلها الله لتنبهنا إلى أن للكون إلهاً مدبراً وخالقاً قادراً على إهلاك الناس فى لحظات .

والزلزلة هى الحركة الشديدة التى تُخرِج الأشياء عن ثباتها ، وتزيلها عن

(١) ذهل يذهل : غفل عنه . وهو كناية عن شدة الهول والفزع .

مواقعها . والحق سبحانه تكلم عن هذه الحركة المضطربة للأرض كثيراً فى مثل قوله تعالى :

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ③ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ④ وَبُسَّتِ(١) الْجِبَالُ بَسًّا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ⑥﴾ [الواقعة]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ(٢) أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ③﴾ [الزلزلة]

ومن العجيب أن الحيوان الأعجم يشعر بالزلزال قبل وقوعه ، بينما الإنسان السيد رغم علمه وتقدمه لم يصل إلى ما أعطاه الله للحيوان فى هذا المجال .

ولذلك ـ فى زلزال أغادير الشهير ـ وجدوا أن الحمير أخذت فى النهيق وخرجت إلى الخلاء قبل حدوث الزلزال بساعة ، فأى إعلام أخبر هذه الحيوانات بما سيقع من دمار وموت وخراب؟

كل هذا يُذكِّرنا أن الحق سبحانه سخر لنا هذا الكون بقدرته وإرادته ، ولو أراد أن يهلكنا بعذاب من عنده ، فما أيسر هذا عليه سبحانه ، ولكن رحمته هى التى تجعله يمهلنا ويسامحنا ويعفو عنا رغم المعاصى والذنوب مع أنه قادر علينا .

---

(١) بسَّه : فتَّه وجعله أجزاء دقيقة . أى : أن الجبال فتت تفتيتًا شديدًا .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٥٣٩) : « يعنى : ألقت ما فيها من الموتى . قاله غير واحد من السلف».

وقد افتتح الحق سبحانه سورة الحج بقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج]

وقال قبلها فى سورة الأنبياء :

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء]

فجاء بذكر هذا الوعد الحق ، وهو قيام الساعة ، وما يصاحبها من أهوال .

وقلنا: إن الزلزلة هى تحرُّك الأشياء حركة تخلخلها عن أمكنتها ، والزلازل التى نراها فى الدنيا تعطينا صورة مصغرة عما يمكن أن يحدث فى الكون .

فالأرض تكون مستقرة ، والقيامة لم تقم بعد ، ثم تهتز الأرض فجأة فتبتلع قرى بأكملها وتدمر مدناً عن آخرها ، فهذا معناه أن الحق سبحانه وتعالى يرينا صورة من قدرته على زلزلة الأشياء الثابتة .

كما أن البراكين وما تقذف به من حمم قادمة من باطن الأرض تعطينا صورة مصغرة لقول الله تعالى :

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة]

فنرى أشياء عجيبة تخرج من باطن الأرض من معادن وصخور وغير ذلك لما خلقه الله فى باطن الأرض من نِعَم .

وقد لفتنا الحق سبحانه إلى انتظام الكون ، فيقول تعالى :

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ

﴿الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ (١) لَّهَا طَلْعٌ (٢) نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق]

وفى لحظة من اللحظات يأمر الحق سبحانه كونه فيختل نظامه ، فترى الأرض المستقرة وقد تزلزلت ، فهو سبحانه الذى يملكها ، فيجعلها تضطرب ويُحدث فى موقع منها زلزالاً ، فتندثر المبانى التى عليه حتى تفهم أن الدنيا ليست محكومة حكماً آلياً ، بل محكومة بالأسباب ، وزمامها ما زال فى قيومية المسبب .

وهذا لَفْتٌ من الله لنا يوضح : لقد صنعتُ هذه القوانين بقدرتى ، ولن تخرج هذه القوانين عن طلاقة قدرتى .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ۝١٥﴾ [النحل]

هذه الرواسى لتثبيت الأرض ، وإلا فلو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبات ، هل كانت تحتاج إلى مثبتات ؟

ولكن لا بُدَّ أنها متحركة ومُعرَّضة للاضطراب ، فخلق لها الله هذه المثقلات ، فهى مثبتة فى الأرض مثل الوتد ، حتى لا تضطرب .

والحق سبحانه يقول عن الأرض والجبال:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ]

---

(١) بسقت النخلة بسوقاً: طالت. قال تعالى : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ ﴾[ق] أى : طويلات عاليات. [القاموس القويم ١/ ٦٧].

(٢)نضد الشىء: جعل بعضه فوق بعض ، أو بجانب بعض فى نظام فهو منضود ونضيد أى: مرصوص بنظام. [القاموس القويم ٢/ ٢٧١].

معنى ذلك أن الجبال لها صلة بتثبيت الأرض ، فلو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبوت والاستقرار ، فلماذا كانت تميد أو تضطرب؟

معنى ذلك أنها عُرْضة للحركة والاضطراب ، ولذلك خلقنا الجبال الرواسى ، وقد وقف العلماء عند كلمة «أوتاد» ليقولوا : إنها مُثبِّتات ، لكن التشبيه هنا لايعطى أنها مُثبِّتات فقط ، لماذا؟

لأن الوتد ، معروف لكل إنسان عاش بين مَنِ استقبلوا القرآن أولاً ، فبيوتهم كانت من الشَّعر ، والأوتاد أدوات تثبيت لهذه البيوت ، فلو لم تثبت الخيام بالأوتاد ، فإن العُمد لا تكفى للتثبيت.

أما الأوتاد فإنها تختلف ، ففى النواحى أقوى ، والتى فى الجوانب تكون أقلَّ فى القوة ؛ ولذلك نرى جبالاً عالية ، وجبالاً أقلّ علواً ، وهكذا.

وقد شاء الحق سبحانه أن يخلق فى الأرض الرواسى ، لتجعلها تبدو ثابتة غير مُقلقة ، والراسى هو الذى يثبت ، ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الاستقرار لما خَلَق الله الجبال ، ولكنه خلق الأرض على هيئة الحركة ، ومنع أنْ تميدَ بخَلْق الجبال ليجعل الجبال رواسى للأرض.

ولذلك امتنَّ الحق سبحانه على عباده بجَعْل الأرض مستقرة بالجبال ، فقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴿٦١﴾﴾{النمل} ، فقد خلق الله الأرض على هيئة مريحة تصلح لأنْ يستقر عليها الإنسان.

ويقول فى آية أخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴿٦٤﴾﴾ {غافر}

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ {الحج}

فالخطاب هنا عامٌّ للناس جميعاً ، يريد أنْ يلفتهم إلى قوة الإيمان ، وتقوى الله ، بأنْ يجعلوا بينهم وبين أَمْر الله بزلزلة الساعة وقاية ، فتقيك العذاب الذى لا طاقة لك به.

والزلزلة: هى الحركة العنيفة الشديدة ، كما لو أردتَ أنْ تخلعَ وتداً من الأرض ، فعليك أولاً أنْ تهزه وتُخلخله من مكانه ، حتى تجعل له مجالاً فى الأرض يخرج منه ، إنما لو حاولتَ جَذْبه بداية فسوف تجد مجهوداً ومشقة فى خَلْعه ، وكذلك يفعل الطبيب فى خَلْع الضرس.

فمعنى الزلزلة: الحركة الشديدة التى تزيل الأشياء عن أماكنها .

والحق سبحانه وتعالى تكلم عن هذه الحركة كثيراً ، فقال: ﴿**إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴿٦﴾**﴾ {الواقعة}

وقال تبارك وتعالى:

﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾**﴾ {الزلزلة}

فالزلزال هنا ليس زلزالاً كالذى نراه من هزَّات أرضية تهدم بعض البيوت ، أو حتى تبتلع بعض القرى ، فهذه مجرد آيات كونية تثبت صِدْق البلاغ عن الله وتُنبِّهك إلى الزلزال الكبير فى الآخرة ، إنه صورة مصغرة لما سيحدث فى الآخرة ، حتى لا نغترّ بسيادتنا فى الدنيا ، فإن السيادة هِبَة لنا من الله.

فليس هذا زلزالاً عاماً ، إنما هو زلزال مخصوص منسوب إلى الأرض بوحى من الله ، وبأمر منه سبحانه أنْ تتزلزل.

لذلك وُصِف هذا الزلزال بأنه شىء عظيم: ﴿**إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**

﴿١﴾ ﴿الحـــج﴾ فحين تقـول أنت أيها الإنسـان: هذا شيء عظيم ، فهـو عظيم بمقياسك أنت ، أما العظيم هنا فعظيم بمقـاييس الحق سبحانه ، فلكَ أنْ تتصورَّ فظاعة زلزال وصفه الله سبحانه بأنه عظيم.

وإذا كان الحق سبحانه قد قال فى سورة الأنبياء:

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴿٩٧﴾﴾ ﴿الأنبياء﴾

فلا بُدَّ أنْ يعطينا هنا صورة لهذا الوعد ، ونُبذة عـما سيحدث فيه ، وصورة مُصغَّرة تدلُّ على قدرته تعـالى على زلزال الآخرة ، وأن الأرض ليس لها قِوَام بذاتها ، إنما قوامها بأمر الله وقدرته ، فإذا أراد لها أنْ تزول زالتْ.

فإذا أراد الله زوال الأرض وانـتهاء الكون وتحـقُّق زلزلة الساعـة نسف اللهُ سبحانه الجبـال نسفاً ؛ لذلك قال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾**﴾ ﴿طه﴾

أى: نُفتِّها ونذروها فى الهواء ، وقد يتصورَّ البعض أن الجبال تُهدُّ وتتحول إلى كتل صخرية ، كـما نُفجِّر نحن الصخور الآن إلى قطع كـبيرة ؛ لذلك أكّد على النَّسْف ، وأن الجبال ستكون ذرات تتطاير.

لذلك قال فـى آية آخرى: ﴿ **وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾**﴾ ﴿القـارعـة﴾

أى: كالصوف المندوف.

وفى آية أخرى يقول تعالى :

﴿**وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾** ﴾

﴿الكهف﴾

أى: اذكـر جيـداً يوم نُسيِّـر الجـبال وتنتـهى هذه الدنيـا ، واعمل البـاقيـات

الصالحات لأننا سنسيِّر الجبال التى تراها ثابتة راسخة تتوارث الأجيال حجمها وجِرْمها ، وقُوَّتها وصلابتها ، وهى باقية على حالها.

ومعنى تسيير الجبال: إزالتها عن أماكنها ، كما قال فى آية أخرى: ﴿**وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾**﴾{**النبأ**} ، وقال فى آية أخرى: ﴿**وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾**﴾{**التكوير**} ، وقال: ﴿**وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾**﴾ {**المرسلات**}

ونلحظ أن الحق سبحانه ذكر أقوى مظهر ثابت فى الحياة الدنيا ، وإلا ففى الأرض أشياء أخرى قوية وثابتة كالعمائر ناطحات السحاب ، والشجر الكبير الضخم المعمّر وغيرها كثير ، فإذا كان الحق سبحانه سينسف هذه الجبال ويزيلها عن أماكنها ، فغيرها مما على وجه الأرض زائل من باب أَوْلَى.

والحق تعالى يقول فى سورة النازعات: ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾**﴾ {**النازعات**}

فهناك حال يحدث فى الكون ، وحال آخر يظهر بانفعال الإنسان يوم القيامة فيه .. أما الذى يظهر فى الكون فهو المؤثر الأول ، لما حدث انفعل الإنسان له ، فحدث ما حدث.

إذن : ظاهرات ظهرتْ فى الكون الانقلابى هذا ﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾**﴾{**النازعات**} هذا ما حدث ، ما الذى يحدث بعد ذلك فى النفس الإنسانية أو النفس الكافرة؟

﴿**قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾**﴾ {**النازعات**}

والراجفة هى الأرض ، يحدث لها الاهتزاز الذى يَقْلب كيانها. ﴿**تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾**﴾{**النازعات**} والتى أردفتْ بها السماء ؛ لأن السماء خُلِقَتْ بعد الأرض.. لكن هل الأرض راجفة؟ أو مرجوفة؟

الأرض ليست راجفة ، هناك شيء رجفها ، الأرض مرجوفة مضطربة ، وهذا أسلوب العرب قبل نزول القرآن كانوا يأتون به ، شيء يُسمونه «المجازات» مثلما يقولون ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ {الحاقة}

هل العيشة هى الراضية؟ أم مَرْضِىٌّ عنها؟ العيشة مَرْضىٌّ عنها ، ولكن بلغ من رضاك عنها أنّ رضاك عنها وحبك لها ليس من جانب واحد ، ولكن تعدَّى الرضا منك إلى أنها أصبحتْ راضية ومُتعلِّقة بك ؛ لأن الحب أعنف ما يكون حينما يكون من جانب واحد.

أنت تحب شيئاً وهو لا يحبك ، أما حين تكون تحب شيئاً وهو يحبك يكون الامتزاج تاماً ، فكأن الحق سبحانه حينما يقول ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ {الحاقة} معناها أنه بلغ من رضاك عن العيشة أن نفس العيشة راضية عنك وتحبك ، ومنسجمة معك ومتجاذبة ، فلا مظنّ أنها تفلت منك ؛ لأنها راضية ومحبة ، لكن عندما تكون أنت مُحباً وغير محبوب ، هذا هو الشقاء.

إذن: فبلغ من هَوْل الموقف أن الأرض رجفتْها قدرة الله ، إلى أنْ أصبحت هى فى ذاتها راجفة ، فكأن الله أمدها بقوة ترجف هى ذاتياً ، هى مرجوفة فى الواقع ، ولكنها راجفة.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ {النازعات}

الأرض يحصل فيها ما يحصل ، والسماء يحدث فيها ما يحدث ، فإذا حدث هذا فى الكون عَلِم الناس جميعاً الذين كانوا ينكرون أن الأمر جِدٌّ ، أن الدنيا ستبقى ومَنْ عليها هم الذين يذهبون وغيرهم يجيئون.

فإذا جاءت بوادر ما كانوا يُكذِّبون به ، ماذا يحدث لهم؟ يُعرض عليهم

شريط أعمالهم ومواقفهم العَقَدية والسلوكية ، فما كانوا يُكذِّبون به بدأتْ بوادره تظهر .

لذلك قال تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ ﴾ {النازعات}

فقلوبهم مضطربة ، فزعة ، قلقة ، لأنها رأتْ بوادر ما كانوا يُكذِّبون فاستحضرت النفوس أعمالها ، ووجدتْ نفسها على خلاف المنهج الذى كان يجب أن يكون .

إذن : فلا بُدَّ أن ننتظر مصيراً مؤلماً كالذى بشَّرَتْ به الرسل أصحاب هذه المناهج ، وتصبح المسألة حقاً واقعاً.

وبعد ذلك قال: ﴿ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ {النازعات}

فالعين هى المنفذ الذى تستطيع أن تدرك به كل حقيقة النفس الإنسانية ، فتستطيع من نظرة العين أنْ تعرف ، أهى نظرة مُحبٍّ أم نظرة مُبْغض؟ وتستطيع من نظرة العين أن تعرف ، أهى نظرة إعجاب أم نظرة احتقار وتهكُّم؟

وتستطيع أن تعرف من نظرة العين كل ما يمكن أن تُكنّه النفس الإنسانية ، ولذلك الحق سبحانه يقول: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ ﴿١٩﴾ ﴾ {غافر}

إذن : فالعين هى المنفذ ، حتى الأطباء عندما يحبون أن يعرفوا سلامة شرايين الإنسان من عدمها ينظرون إلى شرايين العين ، وهى أصدق وسيلة.

إذن: فالقلوب واجفة نعرفها من ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ {النازعات} ذليلة منكسرة متواضعة بعد أنْ كانت أبصاراً متوقحة ، مستهزئة ، مُنكرة. فالعين هى التى أفشتْ السر ، ونلاحظ هنا أن القرآن لم يقُلْ: أبصارهم خاشعة ، بل نسب الأبصار إلى القلوب ، فقال: ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ {النازعات}

هذا يعطينا لفتة أسلوبية جديدة أيضاً ، وهو أن القلوب حين تضطرب ، وحين ترجف ، وحين تقلق يسرى القلق فيها إلى كل جزء من أجزاء النفس.

فكأن القلب ليس هو الواجف ، بل أصبح كلُّ الجسم واجفاً ، فأصبح اضطراب القلوب السِّمة للأنفس والأجساد كلها ، فقال: ﴿**أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ** ﴿٩﴾﴾ {**النازعات**} ، فكأنهم جميعاً باضطرابهم وقلقهم ، كل ذاتهم أصبحت مضطربة.

ومن هذا الاضطراب المرجف للقلوب ، المذلّ للأبصار ، يتبدى هَوْل وعظم هذه الزلزلة الشديدة ، فيقول الحق سبحانه: ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾** {**الحج**}

فالذهول: هو انصراف جارحة عن مهمتها الحقيقية لهوْل رأته ، فتنشغل بما رأته عن تأدية وظيفتها ، كما يذهل الخادم حين يرى شخصاً مهيباً أو عظيماً ، فيسقط ما بيده مثلاً.

فالذهول ـ إذن ـ سلوك لا إرادى قد يكون ذهولاً عن شيء تفرضه العاطفة أو عن شيء تفرضه الغريزة.

العاطفة كالأم التى تذهل عن ولدها ، وعاطفة الأمومة تتناسب مع حاجة الولد ، ففى مرحلة الحمل مثلاً تجد الأم تحتاط فى مِشْيتها وفى حركاتها خَوْفاً على الجنين فى بطنها ، وهذه العاطفة من الله جعلها في قلب الأم للحفاظ على الوليد ، وإلاَّ تعرَّض لما يؤذيه أو يُودِى بحياته.

لذلك ، لما سألوا المرأة العربية عن أحبِّ أبنائها ، قالت: الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يُشْفَى.

فحسب الحاجة يعطى الله العاطفة ، فالحامل عاطفتها نحو ولدها قوية ، وهى كذلك فى مرحلة الرضاعة ، فانظر إلى المرضعة ، وكيف تذهل عن رضيعها وتنصرف عنه ، وأىُّ هَوْل هذا الذى يشغلها ويُعطِّل عندها عاطفة الأمومة والحنان ، وتُعطِّل حتى الغريزة.

وقد أعطانا القرآن صورة أخرى فى قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ {عبس}

ومن عظمة الأسلوب القرآنى أنْ يذكر هنا الأخ قبل الأب والأم ، قالوا: لأن الوالدين قد يُوجَدان فى وقت لا يرى أنهما فى حاجة إليه ، ولا هو فى حاجة إليهما لأنه كبر ، أما الأخ ففيه طمع المعونة والمساعدة.

ولكن الحال أن كلَّ شخص مشغول بحاله ، ذاهل عن أقرب الناس إليه.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ {المؤمنون}

ففى هذا اليوم بالذات ، لاينفع أحدٌ أحداً ، فالنسب موجود لكن دون نفع ، فالنفع من أمور الدنيا أنْ يُوجد قوىٌّ وضعيف ، فالقوى يُعين الضعيف ، ويفيض عليه ، أما فى هذا الموقف فالكلُّ ضعيف.

لذلك ، حينما حدَّث رسول الله ﷺ أننا سنُحشر يوم القيامة حُفَاة عُراة تعجبتْ السيدة عائشة واستحيتْ من هذا الموقف ، فأخبرها رسول الله أن الأمر ليس كذلك ، فهذا موقف ينشغل كُلٌّ بنفسه ، والحال أصعب من أنْ ينظرَ أحدٌ لأحد(١).

(١) عن عائشة قالت: قال النبى ﷺ: «يبعث الله الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً. فقالت عائشة=

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴿٢﴾ ﴾ {الحج}

والمرضعة تأتى بفتح الضاد وكَسْرها: مُرضَعة بالفتح هى التى من شأنها أنْ ترضع وصالحة لهذه العملية، أما مُرضِعة بالكسر فهى التى تُرضع فعلاً، وتضع الآن ثديها فى فم ولدها، فهى مُرضِعة. فانظر إذن إلى مدى الذهول والانشغال فى مثل هذه الحالة.

بعد أنْ تكلَّم سبحانه عن المرضع رقَّى المسألة إلى الحامل، ومعلوم أن الاستمساك بالحمل غريزة قوية لدى الأم حتى فى تكوينها الجسمانى، فالرحم بمجرد أن تصل إليه البويضة المخصَّبة ينغلق عليها.

فإذا جاء وقت الميلاد انفتح له بقدرة الله، فهذه إذن مسألة غريزية فوق قدرة الأم ودون إرادتها. إذن: وَضْع هذا الحمل دليل هَوْل كبير، وأمر عظيم يحدث.

وثالث آثار هذه الزلزلة العظيمة، هو قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ {الحج}

فتراهم سكارى، أى: يتمايلون مضطربين، مثل السكارى حين تلعب بهم الخمر، وتُميلهم يميناً وشمالاً، وتُلقى بهم على الأرض، وكلما زاد سُكْرهم وخروجهم عن طبيعتهم كان النوع شديداً.

وهكذا سيكون الحال فى موقف القيامة، لا من سُكْر، ولكن من خوف وهَوْل وفزع.

=: يارسول الله، فكيف بالعورات؟ قال: لكل امرىء منهم يومئذ شأن يُغنيه». أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٩٠) والنسائى فى سننه (٤/ ١١٤) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٥٦٤) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

لكن ، من أين يأتى اضطراب الحركة هذا؟

قالوا: لأن الله تعالى خلق الجوارح ، وخلق فى كل جارحة غريزة الانضباط والتوازن ، وعلماء التشريح يُحدِّدون فى الجسم أعضاء ومناطق معينة مسئولة عن حفظ التوازن للجسم ، فإذا ما تأثرتْ هذه الغدد والأعضاء يشعر الإنسان بالدَّوار ، ويفقد توازنه ، كأنْ تنظرَ من مكان مرتفع ، أو تسافر فى البحر مثلاً.

فهذا الاضطراب لا من سُكْر ، ولكن من هَوْل ما يرونه ، فيُحدِث لديهم تغييراً فى الغُدَد والخلايا المسئولة عن التوازن ، فيتمايلون كمنْ اغتالته الخمر.

كل هذا وهُمْ لم يرَوْا العذاب بَعْد ، إنها مجرد قيام الساعة وأهوالها أفقدتهم توازنهم ؛ لأن الذى يصدق فى أن القيامة تقوم بهذه الصورة يصدق فى أن بعدها عذاباً فى جهنم.

إذن: انتهت المسألة وما كنا نُكذّب به ، ها هو ماثل أمام أعيننا.

ولكن متى الساعة؟

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ**(١) **عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴿١٨٧﴾ {الأعراف}

(١) قال الزجاج: يسألونك عن أمر القيامة كأنك فرح بسؤالهم. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير ، معناه: يسألونك عنها كأنك حفى بها. قال: ويقال فى التفسير: كأنك حفىٌ عنها كأنك عالم بها {لسان العرب ـ مادة: حفى}.

فَعِلْم الساعة عند الله ، لا يُبيِّنها عند وقتها إلا هو سبحانه وتعالى ، فلا يعرف ميعاد الساعة إلا ربنا ، فلا يعرفه مَنْ هم فى السماوات ، وكذلك مَنْ هم فى الأرض ، وكل مَنْ على الأرض خائف مما سوف يحدث لحظة قيام الساعة.

ويخبرنا رسول الله ﷺ بالحالة التى تأتى عليها ، فيقول: «إن الساعة تهيج بالناس ، والرجل يُصلح حوضه ، والرجل يسقى ماشيته ، والرجل يقيم سلعته فى السوق ، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه».

ومِثْل هذه التوقعات تخيف.. فالواقع فى هذا اليوم يكون فوق احتمال البشر وهو يأتى بغتة ، أى: يجىء من غير استعداد نفسىٍّ لاستقباله.

ولكن وطِّن نفسك على أن الساعة آتية لا محالة ، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه]

والساعة هنا هى عمر الكون كله ، أما أعمار المكين فى الكون فمتفاوتة ، كُلٌّ حَسْب أجله ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته ، وانتهتْ المسألة بالنسبة له.

إذن : نقول: الساعة نوعان:

ـ ساعة لكل منَّا ، وهى عمره وأجله الذى لا يعلم متى سيكون.

ـ وساعة للكون كله ، وهى القيامة الكبرى.

فقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ ﴿١٥﴾﴾ [طه]. أى : اجعل ذلك فى بالك دائماً ، وما دام الموت سينقلك إليها سريعاً ، فإياك أنْ تقول : سأموت قريباً ، أما القيامة فبعد آلاف أو ملايين السنين ، لأن الزمن مُلْغىً بعد الموت ، كيف؟

الزمن لا يضبطه إلا الحدث ، فإن انعدم الحدث فقد انعدم الزمن ، كما يحدث لنا فى النوم ، وهل تستطيع أن تُحدِّد الوقت الذى نمْتَه؟

لذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾** ﴾ {النازعات}

والعبد(١) الذى أماته الله مائة عام لما بعثه قال: يوماً أو بعض يوم ، وكذلك قال أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنوات؛ لأن يوماً أو بعض يوم هى أقصى ما يمكن تصوُّره للنائم حين ينام ؛ لذلك نقول: «من مات فقد قامت قيامته» (٢).

ومن حكمته سبحانه أنْ أخفى الساعة ، أخفاها للفرد ، وأخفاها للجميع ، وربما لو عرف الإنسان ساعته لقال: أفعل ما أريد ، ثم أتوب قبل الموت ؛ لذلك أخفاها الحق ـ تبارك وتعالى ـ لنكون على حذر أنْ نَلْقى الله على حال المعصية.

وكذلك أخفى الساعة الكبرى ، حتى لا تأخذ ما ليس لك من خَلْق الله ، وتنتفع به ظُلْماً وعدواناً ، وتعلم أنك إنْ سرقتَ سترجع إلى الله فيحاسبك ، فما دُمْت سترجع إلى الله فاستقِمْ وعدِّل من سلوكك.

ولذلك كان يوم الحساب ، يوم القيامة ، يوم الدين نعمة من نِعَم الله عزوجل؛ لذلك قال الحق سبحانه فى سورة الفاتحة: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾** ﴾ {الفاتحة}

---

(١) هو عزير عليه السلام. قال تعالى فى حقه: ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴿٢٥٩﴾** ﴾ {البقرة}.

(٢) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك ﷺ وتمامه: «أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة».

فإذا كانت كل نِعَم الله تستحق الحمد ، فإن «مالك يوم الدين» تستحق الحمد الكبير؛ لأنه لو لم يوجد يوم للحساب ، لنجا الذين ملأوا الدنيا شروراً ، دون أنْ يُجازوا على ما فعلوا ، ولكان الذين التزموا بالتكليف والعبادة وحرموا أنفسهم من مُتَع دنيوية كثيرة إرضاءً لله قد شَقُوا فى الحياة الدنيا.

ولكن لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ هو مالك يوم الدين أعطى الاتزان للوجود كله ، هذه المِلْكية ليوم الدين هى التى حَمَتْ الضعيف والمظلوم ، وأبقتْ الحق فى كون الله.

إن الذى منع الدنيا أنْ تتحوّل إلى غابة يفتك فيها القوىُّ بالضعيف ، والظالم بالمظلوم هو أن هناك آخرة وحساباً ، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيحاسب خَلْقه.

والإنسان المستقيم استقامته تنفع غيره ؛ لأنه يخشى الله ويعطى كل ذى حَقٍّ حَقّه ، ويعفو ويسامح.. إذن : كل مَنْ حوله قد استفاد من خلقه الكريم ، ومن وقوفه مع الحقِّ والعدل.

أما الإنسان العاصى فيشقى به المجتمع ؛ لأنه لا أحد يسلَم من شرِّه ، ولا أحد إلاَّ يصيبه ظلمه ؛ ولذلك فإن «مالك يوم الدين» هى الميزان ، تعرف أنت أن الذى يُفسِد فى الأرض تنتظره الآخرة ، لن يفلت مهما كانت قوته ونفوذه ، فتطَمئن اطمئناناً كاملاً إلى أن عَدْلَ الله سينال كل ظالم.

والله ـ تبارك وتعالى ـ وصف نفسه فى القرآن الكريم بأنه «مالك يوم الدين» ، ومالك الشىء هو المتصرف فيه وحده ، ليس هناك دَخْل لأىِّ فرد آخر.. فأنا أملك عباءتى ، وأملك متاعى ، وأملك منزلى ، وأنا المتصرف فى هذا كله أحكم فيه بما أراه.

فمالك يوم الدين .. معناها أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيُصرِّف أمور العباد فى ذلك اليوم بدون أسباب ، وأن كل شىء سيأتى من الله مباشرة ، دون أنْ يستطيع أحد أنْ يتدخّل ولو ظاهراً.

فهو سبحانه «مالك يوم الدين» ، وهو «ملك يوم الدين».

فإذا قيل «مالك يوم الدين» أى: الذى يملك هذا اليوم وحده يتصرف فيه كما يشاء.

وإذا قيل «ملك يوم الدين» فتصرُّفه أعلى من المالك ؛ لأن المالك لا يتصرف إلا فى مُلكه ، ولكن المِلك يتصرف فى مُلْكه ومُلْك غيره ، فيستطيع أنْ يُصدِر قوانين بمصادرة أو تأميم ما يملكه غيره.

الذين قرأوا «مالك يوم الدين» أثبتوا لله سبحانه وتعالى أنه مالك هذا اليوم يتصرَّف فيه كما يشاء دون تدخُّل من أحد ولو ظاهراً.

والذين يقرأون «ملك يوم الدين » يقولون: إن الله سبحانه وتعالى فى ذلك اليوم يقضى فى أمر خَلْقه حتى الذين ملّكهم فى الدنيا ظاهراً ، ونحن نقول عندما يأتى يوم القيامة : لا مالكَ ولا مُلْك إلا لله.

الله ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يُطمئن عباده.. أنهم إذا كانوا قد ابتلوا بمالك أو ملك يطغى عليهم ، فيَوْم القيامة لا مالك ولا مُلْك إلا لله جَلَّ جلاله.

ويوم الدين موجود فى علْم الله سبحانه وتعالى ، بأحداثه كلها ، بجنته وناره ، وكل الخَلْق الذين سيُحاسبون فيه ، وعندما يريد أن يكون ذلك اليوم ويخرج من علْمه جَلَّ جلاله إلى علم خلقه ، سواء كانوا من الملائكة أو من البشر أو الجان يقول: كُنْ.

فالله وحده هو خالق هذا اليوم ، وهو وحده الذى يحدد كل أبعاده ، واليوم نحن نُحدِّده ظاهراً بأنه أربع وعشرون ساعة ، ونحدده بأنه الليل والنهار ، ولكن الحقيقة أن الليل والنهار موجودان دائماً على الأرض.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يُطمئن عباده ، أنهم إذا أصابهم ظلم فى الدنيا ، فإن هناك يوماً لا ظلمَ فيه ، وهذا اليوم الأمر فيه لله وحده دون أسباب ، فكل إنسان لو لم يُدركه العدل والقصاص فى الدنيا فإن الآخرة تنتظره.

والذى اتبع منهج الله ، وقيَّد حركته فى الحياة يخبره الله سبحانه وتعالى أن هناك يوماً سيأخذ فيه أجره ، وعظمة الآخرة أنها تعطيك الجنة ، نعيم لايفوتك ، ولا تفوته.

فقوله سبحانه «مالك يوم الدين» يعطينا أن البداية من الله ، والنهاية إلى الله جَلَّ جلاله ، وبما أننا جميعاً سنلقى الله ، فلا بُدَّ أن نعمل لهذا اليوم ؛ ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئاً فى حياته إلا وفى باله الله ، وأنه سيحاسبه يوم القيامة ، أما غير المؤمن فيفعل ما يفعل ، وليس فى باله الله.

وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ {النور}

فهكذا مَنْ يفعل شيئاً وليس فى باله الله ، فسيفاجأ يوم القيامة بأن الله ـ تبارك وتعالى ـ الذى لم يكُنْ فى باله موجوداً ، وأنه جَلَّ جلاله هو الذى سيحاسبه.

فقوله تعالى: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ {الفاتحة}

هو أساس الدين ؛ لأن الذى لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء ، فما دام يعتقد أنه ليس هناك آخرة ، وليس هناك حساب ، فمِمَّ يخاف؟ ومن أجل أنْ يُقيِّد حركته في الحياة.

إن الدين كله بكُلِّ طاعاته وكلِّ منهجه قائم على أن هناك حساباً فى الآخرة وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى ؛ ليحاسب المخطىء ويثيب الطائع ، هذا هو الحكم فى كل تصرُّفاتنا الإيمانية ، فلو لم يكُنْ هناك يوم نُحاسَب فيه ، فلماذا نصلى؟ ولماذا نصوم؟ ولماذا نتصدَّق؟

إن كل حركة من حركات منهج السماء قائمة على أساس ذلك اليوم الذى لن يُفلت منه أحد ، والذى يجب علينا جميعاً أن نستعد له ، إن الله سبحانه وتعالى سمَّى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم ، والذى يجعلنا نتحمل كل ما نكره ونجاهد فى سبيل الله لنستشهد ، وننفق أموالنا لنعين الفقراء والمساكين.

كل هذا أساسه أنّ هناك يوماً سنقف فيه بين يدى الله ، والله ـ تبارك وتعالى ـ سمَّاه يوم الدين ؛ لأنه اليوم الذى سيُحاسب فيه كل إنسان على دينه ، عَمِل به أم ضيَّعه ، فَمَنْ آمن واتبع الدين سيُكافأ بالخلود فى الجنة ، ومَنْ أنكر الدين وأنكر منهج الله سيُجازى بالخلود فى النار.

ومن عَدْل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن هناك يوماً للحساب ؛ لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغَوْا فى الأرض ربما يُفلِتون من عقاب الدنيا ، هل هؤلاء الذين أفلتوا فى الدنيا من العقاب هل يُفلتون من عَدْل الله؟

أبداً لن يُفلتوا ، بل إنهم انتقلوا من عقاب محدود إلى عقاب خالد ، وأفلتوا من العقاب بقدرة البشر فى الدنيا ، إلى عقاب بقدرة الله ـ تبارك

وتعالى ـ فى الآخرة ، ولذلك لابُدَّ من وجود يوم يعيد الميـزان ، فيعاقب فيه كل مَنْ أفسد فى الأرض وأفلت من العقاب.

بل إن الله ـ سبـحانه وتعـالى ـ يجعل إنساناً يُفلِـت من عقاب الدنيـا ، فلا تعتقد أن هذا خـيرٌ له ، بل إنه شَرٌّ له ؛ لأنه أفلت من عقاب مـحدود إلى عقاب أبدىٍّ.

والحمد الكبير لله ، بأنه «مـالك يوم الدين» ، وهو وحده الذى سيقضى بين خَلْقه ، فالله ـ سبحـانه وتعالى ـ يعامل خَلْقه جميعاً معـاملة متساوية ، وأساس التقوى هو يوم الدين.

١٢ الخَلْق دليل على البَعْث

إن الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً فى الآخرة.. وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى.. ليحاسب المخطىء ، ويثيب الطائع.. هذا هو الحكم فى كل تصرفاتنا الإيمانية ، فلو لم يكُنْ هناك يوم نحاسب فيه.. فلماذا نصلى؟ ولماذا نصوم؟ ولماذا نتصدق؟

يقول الحق سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ {الحج}

لقد حاول الكفار والملحدون وأصحاب الفلسفة المادية أنْ ينكروا قضية البعث ، وهم فى هذا لم يأتوا بجديد ، بل جاءوا بالكلام نفسه الذى قاله أصحاب الجاهلية الأولى.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى عما يقوله أصحاب الجاهلية الأولى:

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ۝٢٤﴾ {الجاثية}

وأمنية الكافر والمسرف على نفسه ، ألاّ يكون هناك بَعْث أو حساب ،

والذين يتعجبون من ذلك نقول لهم: إن الله سبحانه وتعالى الذى أوجدكم من عدم يستطيع أنْ يُعيدكم وقد كنتم موجودين ، يقول جل جلاله:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ {الروم}

فإيجاد ما كان موجوداً أسهل من الإيجاد من عدم على غير مثال موجود والله سبحانه وتعالى يردُّ على الكفار ، فيقول سبحانه:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ {يس}

وهكذا ، فإن البعث أهون على الله من بداية الخَلْق ، وكل شىء مكتوب عند الله سبحانه وتعالى فى كتاب مبين ، وما أخذته الأرض من جسد الإنسان تردُّه يوم القيامة ، ليعود من جديد.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على أنْ يبدأ الخَلْق على غير مثال ، ثم يعيده بعد الموت ، وإعادته أهون عليه من ابتدائه بالنظر إلى مقاييس اعتقاد مَنْ يظن أن إعادة الشىء أسهل من ابتدائه ، فالله له مطلق القدرة فى خَلْقه ، وهو الغالب فى مُلْكه ، وهو الحكيم فى فِعْله وتقديره.

إن الذى يعيد إنما يعيد من موجود ، أما الذى بدأ فمن معدوم ، فالأهون هو الإعادة ، أما الابتداء فهو ابتداء من معدوم ، وكلاهما من قدرة الحق سبحانه وتعالى.

إن هذه القضية إنما تُثْبِت اليوم الآخر ؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الميزان العقدى ، فإن استقرَّ فى القلب فالإنسان بكل جوارحه يتجه إلى الأفعال التى تسير على ضوء منهج الله ، لينال الإنسان الجزاء الأوفى.

إن الإنسان حينما يفهم أن هناك حساباً وهناك جزاءً ، وهناك بَعثاً ، فهو يعرف أنه لم ينطلق فى هذا العالم ، ولم يفلت من الإله الواحد القهار ، إن للإنسان عودة ، فالذى يغتر بما آتاه الله نقول له: لا ، إنك لن تفلت من يد الله ، بل لك عودة بالموت وعودة بالبعث.

لذلك يقول الحق سبحانه مُتعجباً ممَّنْ ينكرون البعث:

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾ {يس}

فالمؤمنون وحدهم هم الذين استقبلوا أمر البَعْث بالتصديق ، بمجرد أن أبلغهم به رسول الله مُبلِّغاً عن ربه ، ونجد الحق سبحانه قد احترم فُضُول العقل البشرى ، فأوضح سبحانه ذلك ونصب الأدلة عليه ، وأبلغنا أنه لم يعجز عن الخَلْق الأول ؛ لذلك لن يعجز عن البعث.

فقد جاء بنا سبحانه من عدم ، وفى البعث سيأتى بنا من موجود ، ومن الغباء إذن أنْ يتشكك أحد فى البعث ، والمسرف على نفسه إنما ينكر البعث؛ لأنه لا يقدر على ضبط النفس ، ويظن أنه بإنكار البعث لن يلقى المصير الأسود الذى سيلقاه فى الآخرة.

ولو أن الواحد منهم وضع مسألة البَعْث فى يقينه لانصرف عن شهواته ، بينما هو يريد أنْ ينطلق بالشهوات ؛ ولذلك نجدهم يقولون: **﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾ {السجدة}**

وهم يقصدون بذلك أنهم بعد الموت سيصيرون تراباً ، ويعودون إلى الأرض كعناصر وتراب تذروه الرياح ، فكيف سيأتى بهم الله ، ويُنشئهم من جديد؟

ومن الكافرين مَنْ قال: سنصير تراباً ، ثم نختلط بالتربة ، ويتم زراعة هذه التربة ، فتمتزج عناصرنا بما تُنبته الأرض من فواكه وخُضر وأشجار ، ثم يأكل طفل من الثمرة التى تغذَّتْ بعناصرنا ، فيصير بعضٌ منّا فى مُكوِّنات هذا الطفل ، والقياس يوضح أننا سوف نتناثر ، فكيف يأتى بنا الله؟

لقد تساءل المشركون: أبعد أنْ نذوب فى الأرض وتتفكك عناصرنا الأولية نعود ثانية ونُبعث من جديد؟

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الإسراء]

والرُّفات: هو الفُتَات ومسحوق الشىء ، وهو التراب أو الحطام.

لقد استبعد هؤلاء البعث بعد الموت ؛ لأنهم غفلوا عن بداية الوجود ، وبداية خَلْق الإنسان ، وقد وقف الفلاسفة طويلاً أمام قضية البعث ، وأخذوا منها سبيلاً لتشكيك الناس فى دين الله.

ومن مغالطاتهم فى هذه المسألة أنْ قالوا: ما الحل إذا مات إنسان مثلاً ، ثم تحوَّل جسمه إلى رُفات وتراب ، ثم زُرِعت فوقه شجرة ، وتغذَّت على عناصره ، فإذا أكل إنسان من ثمار هذه الشجرة فسوف تنتقل إليه بالتالى عناصر من عناصر الميت ، وتتكوّن فيه ذرات من ذراته ، فهذه الذرات التى تكوّنت فى الثانى نقصت من الأول ، فكيف يكون البعث إذن على حَدِّ قولهم؟

والحقيقة أنهم فى هذه المسألة لم يفطنوا إلى أن مُشخَّص الإنسان شىء ، وعناصر تكوينه شىء آخر.. كيف؟

هَبْ أن إنساناً زاد وزنه ، ونصحه الطبيب بإنقاص الوزن فسعى إلى ذلك بالطرق المعروفة لإنقاص الوزن ، وهذه العملية سواء زيادة الوزن أو إنقاصه محكومة بأمرين: التغذية والإخراج ، فالإنسان ينمو حينما يكون ما يتناوله من

غـذاء أكثـر مما يُخرجـه من فضـلات ، ويضـعف إنْ كان الأمـر بعكس ذلك ، فالولد الصغير ينمو لأنه يأكل أكثر مِمَّا يُخرِج ، والشيخ الكبـير يُخرِج أكثر مما يأكل؛ لذلك يضعف.

فلو مـرض إنسان مـرضاً أهزله وأنقـصَ من وزنه ، فذهب إلى الطبـيب فعالجه حتى وصل إلى وزنه الطبيعى ، فهل الذرات التى خرجت منه حتى صار هزيلاً هى بعينها الذرات التى دخلتْه حين تمَّ علاجه؟.

إن الذرات التى خـرجت منه لا تزال فى (المجارى) لم يتكون منـها شىء أبداً ، إنما كمية الذرات ومقاديرها هى التى تقوى وتشخص.

وربنا ـ سبحانه وتعالى ـ رحمة منه قال: ﴿ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾** ﴾[ق] فالحق سبحانه سيجمع الأجزاء التى تُكوِّن فلاناً المشخّص.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿**قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾**﴾ [الإسراء]

أى: قُلْ رداً عليهم: إنْ كنتم تستبعدون البـعث وتستصعبونه مع أنه بَعْثٌ للعظام والرُّفات ، وقد كانت لها حياة فى فـترة من الفترات ، ولها إلْفٌ بالحياة فمن السهل أنْ نعيد إليها الحياة بل وأعظم من ذلك ، ففى قدرة الخالق سبحانه أن يُعيدكـم حتى وإنْ كنتم من حجارة أو من حـديد ، وهى المادة التى ليس بها حياة فى نظرهم.

وكأن الحق سبحـانه يتحدَّاهم بأبعد الأشياء عن الحـياة ، ويتدرج بهم من الحجـارة إلى الحـديد ؛ لأن الحديد أشـدُّ من الحجـارة وهو يقطعهـا ، فلو كنتم حجارة لأَعَدْناكم حجارة ، ولو كنتم حديداً لأعدْناكم حديداً.

ثم يترقَّى بهم إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيقول تعالى: ﴿ **أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ**

فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ(١) إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء]

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ ارتقى بهم فى فرضية الأمر إلى أنْ يختاروا وتجتمع نفوسهم على شىء ، يكون أعظمَ استبعاداً من الحجارة والحديد ، وغاية ما عندهم فى بيئتهم الحجارة والحديد ، فهما أبعد الأشياء عن الحياة ، وقد اتفقوا على ذلك فليس فى محيط حياتهم ما هو أقسى من الحجارة والحديد.

ولكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ارتقى بهم فى فرضية الأمر إلى أن يختاروا ، وتجتمع نفوسهم على شىء ، يكون أعظمَ استبعاداً من الحجارة والحديد.

ومن هذه الأجناس ما ذكره على بن أبى طالب:

«أشد جنود الله عشرة: الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخّر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو بالشىء ويمضى لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُّكْر ، والهمّ يغلب النوم ، فأشدُّ جنود الله فى الكون الهمّ».

فهذه الأجناس هى المرادة بقوله تعالى: ﴿ **أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴿٥١﴾**﴾ [الإسراء] فاختاروا أياً من هذه الأجناس ، فالله تعالى قادر على إعادتكم وبَعْثِكم كما كنتم أحياء.

ثم يقول تعالى:

﴿**فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٥١﴾**﴾ {الإسراء}

(١) أنغض رأسه: حرّكه كالمتعجّب من الشىء قال الفراء: أنغض رأسه إذا حرّكه إلى فوق وإلى أسفل. {لسان العرب ـ مادة : نغض}.

أى : أن الذى خلقكم بداية قادرٌ على إعادتكم ، بل الإعادة أَهْون من الخَلْق بداية ، ولكن الجواب لا يكون مُقنعاً إلا إذا كانت النتيجة التى يأتى بها الجواب مُسلَّمة ، فهل هم مقتنعون بأن الله تعالى فطرهم أول مرة؟

نعم ، هم مؤمنون بهذه الحقيقة رغم كُفْرهم ، بدليل قولهم: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾**﴾[**الزخرف**] فهم مقتنعون بذلك ولكنهم نقلوا الجدل إلى قضية أخرى فقالوا: مَنْ يعيدنا؟ فإنْ قُلْت لهم: الذى فطركم أول مرة ﴿**فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴿٥١﴾**﴾ [**الإسراء**]

ومعنى يُنغضون أى: يهزُّون رؤوسهم من أعلى لأسفل ، ومن أسفل لأعلى استهزاءً وسخريةً مما يقول.

فإن كنتم شاكِّين فى مسألة البعث ، فإليكم الدليل على صِدْقه ﴿**فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴿٥﴾**﴾[**الحج**] أى: الخَلْق الأول ، وهو آدم عليه السلام ، أما جمهرة الناس بعد آدم فخُلِقوا من نطفة حية من إنسان حَىٍّ.

ثم تكلَّم سبحانه عن الخَلْق الثانى بعد آدم عليه السلام ، وهم ذريته ، فقال: ﴿**ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴿٥﴾**﴾[**الحج**]، والنطفة هى خلاصة الخلاصة ؛ لأن جسم الإنسان تحدُث فيه عملية الاحتراق أى: احتراق الطعام بداخل الجسم حيث يمتصّ الجسمُ خلاصةَ الغذاء ، وينقلها إلى الدم.

ومن هذه الخلاصة يُستخلص مَنِىٌّ الإنسان الذى تُؤْخَذ منه النطفة ، فهو إذن خلاصة الخلاصة فى الإنسان ، ومنه يحدث الحمل ، ويتكوَّن الجنين ، وكأن الخالق ـ عزوجل ـ قد صفَّاها هذه التصفية ، ونقاها كل هذا النقاء ؛ لأنها ستكون أصلاً لأكرم مخلوقاته وهو الإنسان.

والمنىُّ هو السائل الذى يحمل النطفة ، وهى الخلاصة التى يتكوَّن منها

الجنين ، والعَلَقة هنا هى البُويضة المخصَّبة ، فبعد أنْ كان للبويضة تعلُّق بالأم ، وللحيوان المنوى (النطفة) تعلُّق بالأب ، اجتمعا فى تعلُّق جديد ، والتقيَا ليتشبَّثا بجدار الرحم ، وكأن فيها ذاتية تجعلها تَعْلَق بنفسها ، يُسمُّونها (الزيجوت).

بعد ذلك تتحول العلقة إلى مُضْغة ﴿ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ ۝﴾[الحج] والمضغة: هى قطعة لحم صغيرة قدر ما يُمضع من الطعام ، وهو خليط من عدة أشياء ، كما لو أكلت مثلاً قطعة لحم مع ملعقة خضار ، مع ملعقة أرز ، وبالمضغ يتحوّل هذا إلى خليط ، ذلك لأن جسم الإنسان لا يتكوَّن من عنصر واحد ، بل من ست عشر عنصراً.

هذه المضغة ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ۝﴾[الحج] معنى مُخلَّقة يعنى: يظهر عليها هيكل الجسم ، وتتشكّل على صورته ، فهذه للرأس ، وهذه للذراع ، وهذه للرِّجْل وهكذا ، يعنى تخلَّقَتْ على هيئة الإنسان.

ثم يقول سبحانه: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۝﴾ [الحج] أى: تُوضح لكم كل ما يتعلق بهذه المسألة ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ ۝﴾ [الحج] وهى المضغة التى قُدِّر لها أن تكون جنيناً يكتمل إلى أنْ يولد لذلك قال: ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۝﴾[الحج] أو: نسقطه ميتاً قبل ولادته.

ولكن ، ما الحكمة من خَلْقه وتصويره ، إنْ كان قد قُدِّر له أنْ يموت جنيناً؟ نقول: لنعرف أن الموت أمر مُطْلق ، لا رابطَ له ولا سِنّ ، فالموت يكون للشيخ كما يكون للجنين فى بطن أمه ، ففى أىِّ وقت ينتهى الأجل.

﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۝﴾ [الحج]

فينقلنا السياق بين مراحل خَلْق الإنسان ، ومراحل نموه ، فينقلنا من

مرحلة الطفولة إلى المرحلة النهائية من عمر الإنسان ، ثم تأتى مرحلة الأشُدّ ، يعنى : نضج نُضْجًا من حوادث الحياة.

ثم يقول تعالى: ﴿**وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۝٥**﴾ [الحج]

وأرذل العمر يعنى رديئه ، حين تظهر على الإنسان علامات الخَوَر والضعف ؛ مثل أنْ ينسى ، وعندها يعرف أن صحته وقوته وسلطانه ليستْ ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله.

وإذا بلغ الرجلُ أرذلَ العمر يعود من جديد إلى مرحلة الطفولة تدريجياً فيحتاج لمن يأخذ بيده ليقوم أو ليمشى ، كما تأخذ بيد الطفل الصغير ، فإذا تكلم يتلعثم كالطفل الذى يتعلم الكلام ، وهكذا فى جميع شئونه.

لكن ، لماذا يُرَدُّ بعضنا إلى أرذل العمر دون بعض؟ الحق سبحانه جعلها نماذج حتى لا نقول : يا ليت أعمارنا تطول؛ لأن أعمار الجميع لو طالتْ إلى أرذل العمر لأصبح الأمر صعباً علينا ، فمن رحمة الله بنا أنْ خلق الموت.

ذلك مثل مَنْ خلق الإنسان ومراحل تكوينه جنيناً ، ثم مراحل حياته فى الدنيا حتى ينتهى أمره بالموت ، طال العمر أم قَصُر ، فَمَنْ خلق من العدم ، وهذا كله ماثل أمام أعينكم ، قادر على الإعادة.

ويعطينا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ مثَلاً آخر على الإحياء ، وهو أمر ماثل أيضاً أمام أعْيُن المرتابين والشَّاكِّين فى أمر البعث ، فيقول تعالى: ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥**﴾ [الحج]

فهذه صورة حيّة واقعية نلاحظها جميعاً عياناً ، الأرض تكون جرداء ساكنة ، لا حركة فيها ، فإذا ما نزل عليها الماء تغيرتْ وتحركتْ ذراتها ، وتشققتْ عن النبات ، ولو حتى بالمطر الصناعى.

فإذا أنزل الله تعالى المطر على الأرض الجدباء الجرداء تراها تتفتق بالنبات ، فمن أين جاءت هذه البذور؟ وكيف لم يُصِبهْا العطب ، وهى فى الأرض طوال هذه الفترات ؟

الأرض هى التى تحفظها من العطب ، إلى أنْ تجد البيئة المناسبة للإنبات ، أما عن نقْل هذه البذور فى الصحراء وفى الوديان ، فهى تنتقل بواسطة الريح ، أو فى رَوَث الحيوانات.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحج]

أى : أن ما حدث فى خَلْق الإنسان تكويناً ، وما حدث فى إنبات الزرع تكويناً ونماءً يُرَدُّ هذا كله إلى أن الله تعالى ﴿ هُوَ الْحَقُّ ﴾ [الحج] ، فهو سبحانه الثابت الذى لا يتغيَّر فى الخَلْق والعطاء ، فلا تظن أن عطاءالله لك شىء جديد، إنما هو عطاء قديم يتكرر لك ولغيرك.

وما دام الأمر كذلك ، وما دُمْتم تشاهدون آية إحياء الموات فى الأرض الميتة فلا تنكروا البعث وإعادتكم بعد الموت ، فيقول تعالى:

﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج]

وقد سبق أنْ أنكروا البعث بعد الموت وقالوا: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الصافات]

فيردُّ عليهم الحق سبحانه: نعم ، سنعيدكم بعد الموت ، والذى خلقكم من لا شىء قادر على إعادتكم من باب أَوْلَى؛ لذلك يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم]

والحق سبحانه هنا يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، لأننا نفهم أن الخَلْق من موجود أهْوَنُ من الخَلْق من عدم ، أما بالنسبة للخالق عز وجل فليس هناك سهل وأسهل ، ولا هيِّن وأهْون.

فقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ﴿٧﴾﴾ [الحج] كأن عملية إحياء الموتى ليست مُنْتهى قدرة الله ، إنما فى قدرته تعالى كثير من الآيات والعجائب.

ومن هذه الآيات والعجائب ما ذكره الحق سبحانه من أمر العُزَير وهو من بنى إسرائيل ، قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا (١) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة]

فقوْل الحق سبحانه ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] يدلُّ على أن هنا شيئاً عجيباً ، فقد أراد الله أنْ يُبيِّن له بنظرة إلى الحمار دليلاً على صِدْق مرور مائة عام ، ووجد الرجل حماره وقد تحول عظاماً مبعثرة ، ولا يمكن أنْ يحدث ذلك فى زمن قصير ، فإن موت الحمار أمر قد يحدث فى يوم ، لكن أنْ يرمَّ جسمه ثم ينتهى لحمه إلى رماد ، ثم تبقى العظام مبعثرة ، فتلك قضية تريد زماناً طويلاً لايتسع له إلا مائة عام ، فكأن النظر إلى الحمار هو دليل على صِدْق مرور مائة عام ، والنظر إلى الطعام دليل على صِدْق ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة]

(١) أنشزَ الشيء: رفعه وأبرزه وأقامه. والمعنى: نرفع العظام بعضها فوق بعض حتى يتكوَّن هيكل عظمى كامل ثم نكسوها لحماً فيصير حماراً حياً كما كان . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٧].

فالقضية إذن قضية عجيبة ، وكيف طُوى الزمن فى مسألة الطعام ، وكيف بُسط الزمن فى مسألة الحمار ، إنه سبحانه يُظهر لنا أنه هو القابض الباسط ، فهو الذى يقبض الزمن فى حقِّ شىء ، ويبسط الزمن فى حقِّ شىء آخر ، والشيئان متعاصران معاً ، وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة طليقة لا تملكها النواميس الكونية ، وإنما هى التى تملك النواميس.

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ(١) إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة]

فكذلك يبسط الحقُّ قصة الحياة وقصة الموت فى تجربة مادية ، ليطمئن قلبُ سيدنا إبراهيم ، وقد جاءت قصة الحياة والموت ؛ لأن الشك عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية كان فى مسألة البعث من الموت ، وكلُّ كلامهم يؤدى إلى ذلك ، فهم تعجبوا من حدوث هذا الأمر:

﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المؤمنون]

وفى قول آخر:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس]

لقد أمر الحق سبحانه محمداً ﷺ ليجيب على ذلك: قُلْ يا محمد يحييها الذى أنشأها أول مرة ، فقد خلقها من عدم؛ ولذلك يقول الحق سبحانه:

---

(١) صُرْهن إليك: قطعهن. قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الأسود الدؤلى ووهب بن منبه . وقال العوفى عن ابن عباس (فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ..﴿٢٦٠﴾ [البقرة] أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً [تفسير ابن كثير ١/ ٣١٥].

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم]

فالذى ينكر هذه القضية لو تذكَّر خِلْقته ونشأته لوجد الدليل على البَعْث لماذا؟ لأن الله خلقه من عدم ، فإذا وُجدتْ ثم مُتَّ وصار لك بقايا منثورة فى الأرض فخَلْقك من موجود أهون عليه من أنْ يخلقك من عدم ، وقد خلقك من عدم فخَلْقك من موجود أَهْون ، وهذا بمنطق البشر؛ لأنه لا شىء يصعب أو يهون على الله.

١٣ البشير النذير

حقيقة مهمة رسول الله ﷺ هى البلاغ بالبشارة والنذارة ، فكأنه سبحانه يُخفِّف العبء عن رسوله ، ويدعوه ألا يُتعب نفسه فى تكلُّف دعوة الناس ، فما عليه إلا البلاغ ، وعلى الله تبارك وتعالى الهداية للإيمان.

يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج]

والإنذار نوع من الرحمة ؛ لأنك تخبر بشرٍّ قبل أوانه ، ليحذره المنذَر ، ويحاول أن يُنجى نفسه منه ، ويبتعد عن أسبابه ، فحين أذكِّرك بالله ، وأنه يأخذ أعداءه أَخْذ عزيز مقتدر ، فعليك أنْ تربأ بنفسك عن هذه النهاية ، وأنْ تنجو من دواعى الهلاك.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة]

وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء]

فالحق سبحانه هنا يخبر رسوله ﷺ بحقيقة مهمته كرسول عليه البلاغ بالبشارة والنذارة ، فلا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها ؛ لأنه ليس مُلْزماً بإيمان القوم ، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف]

أى: مُهلكها حُزْناً على عدم إيمانهم ، وفى آية أخرى قال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء]

فكأنه سبحانه يُخفِّف العبء عن رسوله ، ويدعوه ألا يُتعِب نفسه فى دعوتهم ، فما عليه إلا البلاغ ، وعلى الله تبارك وتعالى الهداية للإيمان.

لكن حرص رسول الله على هداية قومه نابع من قضية تحكمه وتستولى عليه لخَّصَها ﷺ فى قوله:«والله لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (١).

فالنبى ﷺ كامل الإيمان ، ويحب لقومه أن يكون كذلك ، حتى أعداؤه الذين وقفوا فى وجه دعوته كان إلى آخر لحظة فى الصراع يرجو لهم الإيمان والنجاة ؛ لذلك لما مُكِّن منهم لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل قال:«بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئاً» (٢).

وفعلاً صدق الله ورسوله ، وجاء من ذريات هؤلاء مَنْ حملوا راية الدين ، وكانوا سيوفاً على أعدائه ، أمثال عكرمة بن أبى جهل (٣) ، وعمرو بن

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ «والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره ـ أو قال: لأخيه ـ ما يحب لنفسه».

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) من حديث عائشة ﵂ أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال: يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبى ﷺ :«بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً».

(٣) هو : عكرمة بن أبى جهل المخزومى القرشى ، كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ وأسلم عكرمة بعد فتح مكة وحسن إسلامه فشهد الوقائع وولى الأعمال لأبى بكر ، واستشهد فى اليرموك عام ١٣ هـ وعمره ٦٢ سنة. الأعلام للزركلى (٤/ ٢٤٤).

العـاص[1]، وخالد بن الوليـد ، وكثير من المسلمين كانوا حـريصين على قَتْل هؤلاء حـال كفـرهم فى مـعارك الإسـلام الأولى ، وهم لا يعلمـون أن الله لم يُمكِّنهم من هـؤلاء لحكمة ، إنـهم سوف يـكونون معـك من سيـوف الإسـلام وقادته.

والحق سبـحانه لم يُعْطِ الرسل قـدرته ليفـعلوا ما شاءوا ، ولكـنهم فقط مُبلّغون عن الله .

قال تعـالى: ﴿**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)**﴾ [الأنعام]

فلا يطلبنَّ أحدٌ آيات منهم؛ لأنهم لا يسـتطيعون أن يأتوا بالآيات ، وكلُّ رسول يعلم أنه من البـشر ، وهو يستقبل عن الله فـقط ، ولذلك فلنأخذ الرسل على أنهم مُبشِّرون ومُنْذرون.

والبشارة هى الإخبار بما يسرُّ قبل أنْ يقـع ، والسبب فى البشارة هو تهيئة السامع لهـا ليبـادر إلى ما يجعل البـشارة واقـعاً بأنْ يمتثل إلى المنـهج القادم من الإله الخـالق ، ونعـرف أن الإنذار هو الإخبـار بما يسـوء قـبل أن يقع ليحتـرز السامع أن يقع فى المحاذير التى حرمها الله.

والبشـارة ـ كما نعلم ـ تلهب فى الراغب فى الفـعل والمحب له أنْ يفعلَ

---

(١) هو: عمـرو بن العاص السـهمى القـرشى ، أبو عبـدالله ، ولد عام ٥٠ ق.هـ. كـان فى الجاهلـية من الأشداء على الإسلام ، وأسلم فى هدنة الحديبية ، ولاَّه النبى إمرة جيش«ذات السلاسل» ثم استعمله على عُمـان ، ثم كان من أمراء الجيـوش فى الجهاد بالشـام فى زمن عمر ، وهو الذى افتتح قنسرين وولاه عمر فلسـطين ثم مـصر فافتتحها ، وولى حكمها ٣٨ هـ ، توفى بالقاهرة عام ٤٣ هـ عن ٩٣ عامًا.[الأعلام للزركلى ٥/ ٧٩].

العملَ الطيب ، والإنذار يحذر ويخوف مَنْ يرغب فى العمل السىء ليزدجر ويرتدع.

إذن: فمهمة الرسل هى البشارة والإنذار ، فلا تخرجوا بهم أيها الناس إلى مرتبة أخرى أو منزلة ليستْ لهم ، فتطلبوا منهم آيات أو أشياء ؛ لأن الآيات والأشياء كلها من تصريف الحق تبارك وتعالى.

والمطلوب من البلاغ طاعة الله وطاعة الرسول ، ولذلك يقول تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾**﴾ [المائدة]

أى: فإنْ أعرضتم عمّا كلفتكم به فاعلموا أنكم بتولِّيكم وإعراضكم لن تضروا الرسول ؛ لأن الرسول ما كُلِّف إلاَّ أنْ يقوم بالبلاغ المبين ، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كُلِّفتم به.

فالرسول مُبلِّغ عن ربه ، وعلينا أن نحذر الشيطان إذا أراد أنْ يدخل علينا من باب الطاعة ، فالحق سبحانه يوضح لنا أن الإنسان له الاختيار فى أنْ يذهب إلى الطاعة ، وله الاختيار فى أنْ يذهب إلى المعصية.

وإنْ تولَّى الإنسان عن الطاعة إلى المعصية ، وعن الإيمان الذى جاء به الرسول الذى بلّغ عن الله إلى البقاء فى الكفر ، فليعلم ذلك الإنسان أن الرسول قد أَوْفى مهمته وأدَّاها.

فالمطلوب من الرسول أنْ يبلغ المنهج ، وقد بلَّغ ﷺ بلاغاً مبيناً ، محيطاً ، واضحاً ، ومستوعباً لكل أقضية الحياة ، لقد أبلغنا ﷺ مطلوب الله منا أن نؤمن بإله واحد ، قادر ، حكيم ، له كل صفات الكمال ، ذلك هو الأمر الأول فى العقيدة.

وأبلغنا ﷺ أن نبتعد عما كان عليه العرب من الأنصاب ومن الأوثان ومن الأصنام، وبلاغ الرسول ﷺ يطلب منا إيماناً وعملاً، فأول مطلوب الإيمان هو الاعتقاد فى الإله الواحد، وأن نكفَّ عن عبادة الأوثان والأصنام.

﴿ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

فمهمة الرسول ـ إذَنْ ـ هى البلاغ عن الله لمنهج الحياة الذى يصون حركة الحياة، ويقول سبحانه عن مهمة الرسول: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) ﴾ [الرعد]

ويقول سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ (٣٩) ﴾ [الأحزاب]

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿ هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

فهو يُحدِّد لنا قِوام الدين بعد تلقِّيه من رسول الله ﷺ أن يُبلِّغه مَنْ سمعه لمن لم يسمعه.

ولذلك قال ﷺ: «نضَّر (١) الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها، وأداها إلى من لم يسمعها»(٢).

وذلك لتبقى سلسلة البلاغ متصلة، وإنْ لم يُبلغ قوم فالوِزْر على مَنْ لم يُبلَّغ، وبذلك يحرم نفسه من شرف التبعية لرسول الله ﷺ فمَنْ يعلم حكماً

---

(١) النضرة: النعمة والحُسْن والرونق. وقال الحسن المؤدّب: ليس هذا من الحسن فى الوجه، إنما معناه: حسَّن الله وجهه فى خُلُقه أى: جاهه وقدره. [لسان العرب ـ مادة: نضر].

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١/ ٤٣٧)، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧، ٢٦٥٨)، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (١/ ٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

من أحكام الدين ، فالمطلوب منه هو تبليغه للغير ، مثلما طلب الحق سبحانه من رسوله أن يُبلِّغ أحكامه.

والحق سبحانه هو القائل: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة]

وهكذا شهد الرسول ﷺ أنه بلَّغكم، وبقى على كل مسلم يعلم حكماً من أحكام الدين أن يُبلِّغه لمن لا يعرفه، فقد ينتفع به أكثر منه ، وبعد أن سمع الحكم قد يعمل به ، بينما مَنْ أبلغه الحكم لا يعمل به.

وهكذا يتحمل المسلم مسئولية الإبلاغ بما يعرف من أحكام الدين لمن لا علمَ لهم به ، لتظل الرسالةُ موصولةً ، وكلنا نعلم أن الحق سبحانه قد قال: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران]

أى: أنكم يا أمة محمد قد أخذتم مهمة الأنبياء.

﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴿٥٠﴾﴾ [الحج]

وطالما آمنوا وعملوا الصالحات فقد انتفعوا بالنذارة ، وأثمرتْ فيهم ، فآمنوا بالله إلهاً فاعلاً مختاراً له صفات الكمال المطلق ، ثم عملوا على مقتضى أوامره ؛ لذلك يكون لهم مغفرة إنْ كانت ألَمَّتْ نفوسهم بشىء من المعاصى ، ويكون لهم رزق كريم.

والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة]

والبُشْرى هنا إعلام بخير قادم للمؤمنين ، والإيمان هو الرصيد القلبى للسلوك ؛ لأن مَنْ يؤمن بقضية يعمل من أجلها ، والإيمان أنْ تنسجم حركة

الحياة مع ما فى القلب وَفْق مراد الله سبحانه وتعالى ، ونظام الحياة لا يقوم إلا على إيمان ، فكأن العمل الصالح ينبوعه الإيمان.

الحق ـ تبارك وتعالى ـ بشَّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، والجنات جمع جنة ، وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة ، وهناك درجات فى كل جنة أكثر من الدنيا ، واقرأ قوله تعالى: ﴿ **انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴿٢١﴾** ﴾ [الإسراء]

الجنات نفسها متنوعة ، فهناك جنات الفردوس ، وجنات عدن ، وجنات نعيم ، وهناك دار الخُلْد ، ودار السلام ، وجنة المأوى ، وهناك عِلِّيُّون الذى هو أعلى وأفضل الجنات ، وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى ، وهو نعيم يعلو كثيراً عن أى نعيم فى الطعام والشراب فى الدنيا.

والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع أو ظمأ ، وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع.

والله جلَّ جلاله فى هذه الآية يعد بأمر غيبى ؛ ولذلك فإنه لكى يُقرِّب المعنى إلى ذهن البشر ، لا بُدَّ من استخدام ألفاظ مشهودة وموجودة ، أى: عن واقع نشهده.

واقرأ قوله تبارك وتعالى :﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾** ﴾ [السجدة]

إذن: ما هو موجود فى الجنة لا تعلمه نفس فى الدنيا ، ولا يوجد لفظ فى اللغة يُعبِّر عنه ، ولا مَلَكة من مَلَكات المعرفة كالسمع والنظر قد رأته ؛ ولذلك استخدم الحق تبارك وتعالى الألفاظ التى تتناسب مع عقولنا وإدراكنا.

قال تعالى: ﴿ **جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴿٢٥﴾** ﴾ [البقرة]

على أن هناك آيات أخرى تقول ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ(١٠٠)﴾ [التوبة]

فما الفرق بين الاثنين؟ فتجرى تحتها الأنهار ، أى: أن نَبْع الماء من مكان بعيد وهو يمرُّ من تحتها ، أما قوله تعالى: ﴿مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ(٢٥)﴾[البقرة] فكأن الأنهار تنبع تحتها ، حتى لا يخاف إنسان من أن الماء الذى يأتى من بعيد يُقطع عنه أو يجفّ ، وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنة باق وخالد.

وما دام هناك ماء ، فهناك خُضْرة ومنظر جميل ، ولابُدَّ أن يكون هناك ثمر ، وفى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا(٢٥)﴾ [البقرة]

حديث عن ثمر الجنة ، وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا ، إنك فى الدنيا لابُدَّ أنْ تذهب إلى الثمرة وتأتى بها ، أو يأتيك غيرك بها ، ولكن فى الجنة ، الثمر هو الذى يأتى إليك ، بمجرد أنْ تشتهيه تجده فى يدك.

وتعتقد أن هناك تشابهاً بين ثمر الدنيا وثمر الجنة ، ولكن الثمر فى الجنة ليس كثمر الدنيا ، لا فى طَعْمه ولا فى رائحته ، وإنما يرى أهلُ الجنة ثمرها ويتحدثون يقولون ربما تكون هذه الثمرة هى ثمرة المانجو أو التين الذى أكلناه فى الدنيا ، ولكنها فى الحقيقة تختلف تماماً ، قد يكون الشكل متشابهاً ، ولكن الطَّعْم وكل شىء مختلف.

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ(١) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)﴾ [الحج]

والسعى : عمل يذهب إلى غاية ، فإنْ كان قَطْع مسافة نقول: سِرْنا من

(١) قال الزجاج : معناه ظانّين أنهم يُعجزوننا ؛ لأنهم ظنوا أنهم لا يُبعثون ، وأنه لاجنة ولانار ، وقيل فى التفسير : معاجزين معاندين . وقال ابن عرفة : أى يعاجزون الأنبياء وأولياء الله، أى: يقاتلونهم ويمانعونهم ، ليصيروهم إلى العجز عن أمر الله. وليس يعجز الله خلق فى السماء ولا فى الأرض، ولاملجأ منه إلا إليه. [لسان العرب ـ مادة :عجز].

كذا إلى كـذا ، وإنْ كان فى قضـية علميـة فكرية ، فيعنى أن الحـدث يعمل من شىء بداية إلى شىء غاية.

والسَّعْى لا يُحمد على إطلاقه ، ولا يُذَمُّ على إطلاقـه ، فإنْ كان فى خير فهـو محـمود ممدوح ، كـالسَّعْى الذى قـال الله فـيه: ﴿ **فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا(١٩)** ﴾ [الإسراء]

وإنْ كـان فى شرٍّ فـهـو قبـيح مذمـوم ، كـالسعى الـذى قال الله تعـالى فيـه: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ(٢٠٥)** ﴾ [البقرة]

وهم يظنون أنهم قـادرون أن يُعـجزونا ، فـحـين نأتى إليـهم بكلام بليغ مُعجز يختلقون كلامـاً فارغاً ليُعجزونا به ، فأنَّى يكون لهم ذلك؟ وأنَّى لهم أنْ يطعنوا بكلامهم على كلام الله؟

﴿ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)** ﴾ [الحج]

فهـذا حكم الله فيهم ، قـضية واضـحة من أقصـر الطرق ، فمَنْ ذا الذى يُعجز الله؟

١٤ عجز الآلهة

يعلن الحق سبحانه على الناس جميعاً في الآفاق ، إعلاناً مدوياً عاماً ، عن ضعف الآلهة المدَّعاة ، التي يتخذها الناس من دون الله.. يعلن عن هذا الضعف في صورة مثَل معروض للأسماع والأبصار، مُصوَّر في مشهد شاخص متحرك ، تتملاه العيون والقلوب.. مشهد يرسم الضعف المزري ، ويمثله أبرع تمثيل.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج]

والمثَل: تشبيه شيء غير معلوم بشيء آخر معلوم وعجيب وبديع يعلَق في الذِّهْن ، كما نصف لك إنساناً لم تَرَه بإنسان تعرفه. نقول: هو مِثْل فلان ، وهكذا كل التشبيهات.

ومنه قوله تعالى: **﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾** [البقرة]

وقوله تعالى: **﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾** [الأعراف]

وقوله تعالى: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ**

بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [العنكبوت]

إذن: الأمثال: إعلام بشيء معلوم ليصل العلم فيه إلى شيء مجهول، وكلمة (مثل) استقلت بأن يكون المَثَلُ بديعاً فى النسج، بليغاً موجزاً، بحيث تتناقله الألسنة بسرعة فى كلمات معدودة.

فالمَثَل قول مُوجز بليغ قيل فى مناسبته، ثم استعمله الناس لخِفَّته وجماله وبلاغته فى المواقف المشابهة.

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يضرب لكم هذا المَثَل ويقول: خذوه فى بالكم وانتبهوا له، وافتحوا له آذانكم جيداً واعقلوه؛ لأنه سينفعكم فى علاقتكم برسول الله وبالمؤمنين.

والخطاب هنا مُوجَّه للناس كافّة، لم يخُصّ أحداً دون أحد، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ (٧٣)﴾** [الحج] فلم يقل يأيها المؤمنون؛ لأن هذا المَثَل مُوجَّه إلى الكفار، فالمؤمنون ليسوا فى حاجة إليه.

﴿**فَاسْتَمِعُوا لَهُ (٧٣)﴾** [الحج] يعنى: انصتوا وتفهَّموا مراده ومرماه، لتسيروا فى حركتكم على وَفْق ما جاء فيه، وعلى وَفْق ما فهمتم من مغزاه.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يضرب لنا الأمثال بالأمور الحسية، كى ينقل المعانى إلى أذهاننا؛ لأن الإنسان له إلْفٌ بالمُحسِّ، وإدراكات حواسه تعطيه أموراً حِسِّية أولاً، ثم تحقق له المعانى بعد ذلك.

وقد أعطانا الحق سبحانه هنا مَثَلاً، فما هو هذا المثل؟

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ (٧٣)﴾** [الحج]

فالذين تعبدونهم وتتجهون إليهم من دون الله ﴿ **لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا** ﴿٧٣﴾ ﴾ [**الحج**] وهو أصغر المخلوقات ﴿ **وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ** ﴿٧٣﴾ ﴾ [**الحج**] يعنى : تضافرت جهودهم ، واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً ، وهذا ترقٍّ فى التحدى ، حيث زاد فى قوة المتحدَّى.

كما ترقَّى القرآن فى تحدِّى العرب ، فتحداهم أولاً بأنْ يأتوا بمثل القرآن ، ولأن القرآن كثير تحدَّاهم بعشر سور فما استطاعوا ، فتحداهم بسورة واحدة فلم يستطيعوا.

ثم يترقَّى فى التحدى فيقول: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ** ﴿٨٨﴾ ﴾ [**الإسراء**]

فكأنه سبحانه يقول: اجمعوا كل فصحائكم وبلغائكم بل والجن أيضاً يساعدونكم ولن تستطيعوا.

وقوله تعالى: ﴿ **لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا** ﴿٧٣﴾ ﴾ [**الحج**] جاءت بنفى المستقبل ، فلم يقُلْ مثلاً: لم يخلقوا ، فالنفى هنا للتأبيد ، فهم ما استطاعوا فى الماضى ، ولن يستطيعوا أيضاً فيما بعد ، حتى لا يظن أحد أنهم ربما تمكّنوا من ذلك فى مستقبل الأيام ، ونفى الفعل هكذا على وجه التأبيد ؛ لأنك قد تترك الفعل مع قدرتك عليه ، إنما حين تتحدّى به تفعل لتردَّ على هذا التحدى ، فأوضح لهم الحق سبحانه أنهم لم يستطيعوا قبْلُ التحدى ، ولن يستطيعوا بعدُ التحدى.

ثم يقول تعالى: ﴿ **وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ** ﴿٧٣﴾ ﴾ [**الحج**] فقد تقول : إن عملية الخَلْق هذه عملية صعبة لا يتحدَّى بها ؛ لذلك تحدَّاهم بما هو أسهل من الخَلْق.

﴿ **وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ** ﴿٧٣﴾ ﴾ [**الحج**] وهل يستطيع

أحد أنْ يُعيد ما أخذه الذباب من طعامه على جناحه ، أو رِجْلَيْه ، أو خرطومه؟

وكانوا يذبحون القرابين عند الأصنام ، ويضعون أمامها الطعام ليباركوه، فكانت الدماء تسيل عندها وتتناثر عليها ، فيحطّ عليها الذباب ، ويأخذ من هذه الدماء على أَرْجُله النحيفة هذه ، أو على أجنحته ، أو على خرطومه ، فتحدّاهم أنْ يستعيدوا من الذباب ما أخذه ، وهذه مسألة أسهل من مسألة الخَلْق.

ولك أن تُجرِّب أنت هذه العملية ، إذا وقع ذباب على العسل الذى أمامك ، فلا بُدَّ أنْ يأخذ منه شيئاً ولو كان ضئيلاً لا يُدْرَك ، ولا يُوزَن ، ولاتكاد تراه ، لكن أتستطيع أن تُمسِك الذبابة ، وتردّ ما أخذتْ منك؟

فهؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئاً ، ولن يستطيع أحد الادعاء بأن هؤلاء الشركاء عندهم نية الخَلْق ، ولكن مجيء «لن» هنا يؤكد أنهم حتى بتنبيههم لتلك المسألة فلسوف يعجزون عنها ؛ لأن نفى المستقبل يستدعى التحدِّى ، رغم أنهم آلهة متعددة ، ولو اجتمعوا فلن يخلقوا شيئاً.

ويستمر التحدى فى قوله سبحانه :﴿**وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴿٧٣﴾﴾ [الحج]

أى: لو أخذ الذبابُ بساقه الرفيعة شيئاً مما يملكون لَمَا استطاعوا أنْ يستخلصوه منه.

وهكذا ، يتضح أن الحق سبحانه وحده هو الخالق لكل شىء وتلزم عبادته وحده لا شريك له ، وهو جَلَّ وعلا المتفرد بالربوبية والألوهية ، وهو القهار المتكبر ، والغالب على أمره أبداً ، فكيف يكون مَنْ دونه مساوياً له؟ لذلك لا شريكَ له أبداً.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)** ﴾ [الأعراف]

أيشركون فى عبادة الله مَنْ لا يخلقون شيئاً ، وهم أنفسهم مخلوقون لله إن مَنْ أشركوا بالله الأصنام فعلوا ذلك بالوهم ، وتنازلوا عن العقل ، وكان الواجب أنْ يكونوا عقلاء ، فلا يتخذون من الأصنام آلهة.

والخَلْق ـ كما نعلم ـ أول مرتبة من مراتب القدرة ، فإذا كانت الأصنام التى اتخذها هؤلاء شركاء لا تخلق شيئاً بإقرارهم هم ، فكيف يعبدونها؟ إنها لا تخلق شيئاً بدليل أنها لا تتناسل ، بل إذا أراد العابدون أنْ يزيدوا صنماً ، صنعه العابدون بأنفسهم.

وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿ **أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)** ﴾ [الرعد]

أى: لو كان هؤلاء الشركاء قد خلقوا شيئاً مثل خَلْق الله ، لكان لهم أنْ يعقدوا مقارنة بين خَلْق الله وخَلْق هؤلاء الشركاء ، ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم مشاركين لله فى الألوهية لا يقدرون على خَلْق الشىء ، فكيف يختارونهم شركاء لله؟

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ (١١)** ﴾ [لقمان]

والحق سبحانه يعرض علينا فى سورة النمل خَلْق الله ، وهو مُشَاهد للناس جميعاً ، ولكن الحق سبحانه يُفصِّل الأمر لعلَّ الناس يتذكَّرون: ﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)** ﴾ [النمل]

﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾ [النمل]

ومادام أن الله تعالى ادَّعى مسألة الخَلْق لنفسه سبحانه ، ولم يَقُمْ لهذه الدعوى منازع ، فقد ثبتت له سبحانه إلى أنْ يدعيها غيره ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ (٦٠)﴾ [النمل]

فإنْ كان هناك إله آخر خلق الخَلْق ، فأين هو : إما أنه لم يَدْرِ بهذه الدعوى ، أو درى بها وجَبُن عن المواجهة ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح إلهاً ، وإلا فَلْيَأْت هو الآخر بخَلْق ومعجزات أعظم مما رأينا.

فإذا قال الله تعالى: أنا الله ، ولا إله غيرى ، والخَلْق كله بسمائه وأرضه صنعتى ، ولم يوجد معارض فقد ثبتت له القضية.

فالحق سبحانه يريد أنْ يبنى التصورُ الإيمانى على جذور ثابتة فى النفس البشرية ؛ لأن الإنسان الذى يُفَاجأ بهذا الكون ، وفيه سماء بهذا الشكل بلا عَمَد ، وتحتها الكواكب ، وأرض مستقرة ، بالله أَلاَ يفكر فيمَنْ صنع هذا؟

والله لو أن واحداً استيقظ من نومه ووجد سُرَادِقاً قد نُصب فى الميدان ليلاً لوقف ليسأل: ما الحكاية؟ فما بالنا بواحد فتح عينيه فوجد هذا الكون المنتظم الذى يعطيه أسباب الحياة؟

ولو أن إنساناً وقعتْ به طائرة فى صحراء ، ولم يجد فيها ماء ولا شجراً ولا أناساً ، ولأنه مُجْهَد غلبه النوم ، فاستيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام بالله قبل أنْ يمدَّ يده لينتفع بها ألاَ يجول فِكْره فيمَنْ صنع هذه؟

إن دهشته من الحدث تجعله يفكر فيمن جاء بها قبلما يذوق الطعام رغم أنه جوعان ، فكذلك الناس الذين فتحوا عيونهم فوجدوا هذا الكون العجيب ، وبعد ذلك لم يدَّع أحد منهم أنه خلقه.

ولو كان أحد قد ادَّعى أنه خلقه لكانت المسألة تسهل ، لكن أحداً لم يدَّع صُنْعه ، هذا الكـون الذى نراه جميـعاً بانتظامه الرائع وقـوانينه الثابتـة. هل قال أحد : إننى صنعته ؟ لا .

إذن : فالذى قـال: إننى صنعـته تَسْلَم له الدعـوة ، حتى يأتى واحـد آخر يقـول : أنا الذى صنعتُـه ، لم يحدث هـذا قط برغم وجود الملاحـدة والمفتـرين على الله.

ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾ [النمل]

كأن الحق يقول: إن لم أكُنْ أنا الذى خلقتُ ، فمن الذى خلق إذن؟ ولم يجرؤ أحـد على أن ينسب الكون لنفسه ؛ لأن الكفـار والملاحدة لا يستطيـعون خَلْق شىء تافه من عدم.

ومثـال ذلك كوب الماء الذى تركه الله ولم يخلقـه على الصورة التى هو عليها ، كـى يصنعوه ليفهمـوا أن كل شىء تم بخَلْقه سبحـانه كوبَ الماء ، هذا شىء أترفَ الحـياة ، وقـبل أنْ تتم صناعـة الكوب كنا نشـرب ، ولم يكُنْ هناك شجر يطرح ويثمر أكواباً ، بل صنعه إنسان أراد أنْ يُترف الحياة.

فإذا كان هذا الشىء الـصغير له صانع ، جـال فى نواحى علوم شتى وفى المادة ، ثم نظر إلـى الأرض حـتى وجـد المادة التـى عندمـا تُصـهـر تعطى هذه الشفافية واللمعان ، فـجرب فى عناصر الأرض فلم يجد إلا الرمل ، واكتشف هذه المادة ومزجـها بمواد أخرى لصَهْـرها وإذابتها ، واحتـاجتْ صناعة الكوب إلى معامل وعلماء.

كل هذا من أجل الكوب الصغير الذى قد تستغنى عنه ، انظر ما يحتاجه لصُنْعـه؟ احتاج طـاقات جالتْ فى جـميع مـواد الأرض ، وإمكانات صناعـية وأناساً يضعون معادلات كيماوية ، فما بالنا بالأشياء الأصلية ، وكم تحتاج؟

إن كل صنعة تحتاج على قدرها ، ولم يقُلْ أحد: إننى صنعتها. فيقول الحق: مَن الذى صنع كل هذا؟ وساعة يطرح سؤالاً فهو لا يريد أن يجعل القضية إخبارية منه ، وهو القادر أن يقول: أنا الذى خلق السماء والأرض. فماذا يفعل المسئول؟ إنه يتخبط فى إجابته ، ثم فى النهاية لا يجد إلا الله.

وكأن السائل لايطرح هذا السؤال إلا إذا وثق أن الإجابة لا تكون إلا على وَفق ما يريد ﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ (٦٠)** ﴾ **[النمل]**

وجاء هنا بالحاجة المباشرة ﴿**فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ (٦٠)**﴾ **[النمل]**

أى: أنها تسرُّ النظر بما فيها من خُضْرة ونضارة وطراوة وظِلٍّ وأزهار وثمار ، ولم يختصر الأمر فيقول (لتأكلوا منها) لأن الذى يأكل هو الذى يملك فقط ، لكن جمال المنظر لا يحجزه أحد عن كل مَنْ يرى ، ويستمتع بما يراه ، وكل منا عندما يرى بستاناً جميلاً يسرُّه منظره ، صحيح أنك لا تمدّ يدك لتأكل منه ؛ لأنه ليس ملْكك لكن هل يمنعك أحد أنْ تُمتِّع به نظرك ، وأنْ تُمتّع أنفك برائحته الجميلة؟ لا.

وهكذا جاء الحق بالنعمة الشائعة لمن يملك ولمن لا يملك ، فقال: ﴿**ذَاتَ بَهْجَةٍ (٦٠)**﴾ **[النمل]** ونعرف أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يمتنُّ بالأشياء يوضح لك: إياك أنْ تفهم أن الغرض من هذه المسألة أن تأكلها لتملأ بها بطنك فقط ؛ لأن هناك أشياء جميلة لا ننتفع بها أكْلاً ، فهناك ألوان من الشجر ليس له ثمرة لكن لا بُدَّ أن له عملاً ، فورقه الجميل قد يفيد فى الظل وما يُشيعه من رائحة تعطر الجو ، وبه خشب نحتاج إليه ، وبجانب هذا نجد أشجاراً لها ثمار جميلة ننتفع بها.

ولذلك يقول الحق: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ (١) دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾ [الأنعام]

وسبحانه بديع السماوات والأرض، سبحانه هو القوى الذى خلق، وهو حَىٌّ لا يموت، سبحانه هو الخالق للكون، والعليم بكل ما فيه، ولا يحتاج إلى معاونة من أحد.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)﴾ [الأنعام]

وما دام هو خالق كل شىء وهو الباقى فهو الأحق بالعبادة؛ لأن العبادة معناها طاعة الأمر وطاعة النهى، ومادام سبحانه الذى خلق فهو الذى يضع قانون الصيانة للإنسان والكون، وإنْ خالفت المنهج يفسد الكون والإنسان، وإذا فسد الكون أو الإنسان فأنت تلجأ إلى منهج الخالق لتعيد لكل منهما صلاحيته؛ لذلك فهو الأَوْلَى بالعبادة.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ (١٠٢)﴾ [الأنعام]

وهذه شهادة شهد بها لذاته قبل أنْ يخلق كل شىء، وقبل أن يخلق الملائكة، وشهدتْ بها ملائكته، وشهد بها أولو العلم.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ (١٨)﴾ [آل عمران]

إذن: فالله شهد بألوهيته من البداية، ومن أسمائه الحسنى «المؤمن»،

(١) القنو: العذْق، وهو ذو الشماريخ المكللة بالبلح وجمعه: أقناء وقنوان. [القاموس القويم ٢/ ١٣٥].

ونحن مـؤمنون بالـله ، وربّنا المؤمن بأنه إله واحـد ، وهذا الإيـمـان منه أنه إله واحد يخاطب كل شيء يريده ، وهو يعلم أن أيَّ شيء لا يقدر أنْ يخالفه.

لذلك كان قوْل الحق سبحانه: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[الحج] ، أى: أن هؤلاء الكفار الذين عبدوا آلهة من دون الله لا تستطيع أنْ تخلقَ ذباباً ، ولا تستطيع حتى أنْ تردَّ من الذباب مـا أخذه ، هؤلاء ما عرفوا لله قدره ، ولو عرفوا قدر الله ما عبدوا غيره.

ومعنى المقدار فى حقه تعالى عظمته فى صفات الكمال فيه ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴿٧٤﴾﴾[الحج] ما عظَّموه حقَّ التعظيم الذى ينبغى له ، وما عرفوا قدره ولو عرفـوا ما عبدوا غيره ، ولا عبـدوا أحداً معه مـن هذه الآلهة التى لا تخلق ذباباً ، ولا حـتى تستـرد ما أخـذه منهم الـذباب ، فكيف يُسوّوُّن هؤلاء بالله ويقارنونهم به عزوجل؟

إنهم لو عرفوا لله تعـالى قَدْره لاستحيـوا من ذلك كله ، لذلك كان قوْل الحق سبحـانه فى نهاية الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴿٧٤﴾﴾[الحـج] ؛ لأن الحـق سبحانه تكلـم فى المثَل السابق عـمَّنْ انصرفـوا عن عبـادته سبـحانه إلى عـبادة الأصنام ، وقال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج]

فقال فى مقابل هذا الضعف: إن الله لقوىٌّ ، قوة عن العابد لأنه ليس فى حاجة إلى عـبادته ، وقوة عن المعبـود ، لأنه لو شاء حطَّمه ، وما دُمْتم انصرفتم عن الله وعبدتم غيره ، فهذا فيه مـضارة ، وكأن هناك معركة ، فإن كان كذلك فالله عزيز لا يُغَالَب.

وكان النبى ﷺ إذا أثنى على الله تعالى يقول: «سـبحـانك لا نحصى

ثناء عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك»[1]

لماذا ؟ لأنه لا يملك أحد مهما أُوتِى من بلاغة الأسلوب أن يُثنى على الله الثناء المناسب الذى يليق به سبحانه ، ومن رحمة الله تعالى بعباده أنْ تحمل عنهم هذه المسألة فأثنى الحق سبحانه على نفسه ، وعلَّمنا كيف نُثنى عليه سبحانه.

فإذا ما تحدَّث البليغ وأثنى على الله بفنون القول والثناء ، فإن العَىَّ الذى لا يجيد الكلام يطمئن ، حيث يُثنى على ربه بما علّمه من الثناء ، وما وضعه من صيغ يقولها الفيلسوف ، ويقولها راعى الشاة.

ولولا أن الله تعالى علَّمنا صيغة الحمد فى سورة الفاتحة ، فقال: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢**﴾[**الفاتحة**] ما تعلَّمنا هذه الصيغة ، فتعليم الله لعباده صيغة الحمد فى ذاتها نعمة تستحق الحمد ، والحمد يستحق الحمد ، وهكذا فى سلسلة لا تنتهى ، ليظل الحق ـ تبارك وتعالى ـ محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً دائماً.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٦ / ٥٨، ١٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك».

١٥ يوم الفزع الأكبر

ذلك اليـــوم الذي يقطع أواصـــر الرحم والنسب ، ويشغل الوالد عن الولد ، ويحول بين المولود والوالد، وتقف كل نفس فيه وحيدة فريدة مجردة من كل عون ومن كل سند ، مـوحـشـة من كل قُـرْبى ومن كل رابطة.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ [لقمان]

ساعة يسمع الإنسـان أى أمر فيه فتنة ، فلا يظن أنهـا أمر سيء ، بل عليه أنْ يتذكَّـر أن الفتنة اختبـار وابتلاء وامتحـان ، وعلى الإنسان أنْ ينجح مع هذه الفتنة ، فالفتنة إنما تضرّ مَنْ يخفق ، ويضعف عند مواجهتها.

والكافرون لا ينجحون فى فـتنة الأموال والأولاد ، بل سوف يأتى يوم لا يملكون فيه هذا المال ، ولا أولئك الأولاد ، وحتى إنْ ملكوا المال فلن يشتروا به فى الآخرة شيئاً ، وسيكون كل واحد من أولادهم مشغولاً بنفسه.

إن كل امرىء له يـوم القيامـة شأن يُلهـيه عن الآخرين ، والـكافرون فى الدنيا مشغولون بأموالهم وأولادهم.

كما قال تعالى: **﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس]**

لذلك حينما حدَّث رسول الله ﷺ أننا سنُحشَرُ يوم القيامة حُفاة عُراة تعجبتْ السيدة عائشة ، واستحيَتْ من هذا الموقف ، فأخبرها رسول الله ﷺ أن الأمر ليس كذلك ، فهذا موقف ينشغل كلٌّ بنفسه ، والحال أصعب من أن ينظر أحد لأحد(١).

إذن : النفى لنفى الأنساب ، لا للأنساب نفسها.

وإن كان نَفْع الأسباب يمتنع لهَوْل الآخرة فقد يتسامى الإنسان فيمنع نَفْعه حتى فى الدنيا عن ذوى قرابته إنْ كانوا غير مؤمنين ، وقد ضربها الله مثلاً فى قصة نوح عليه السلام وولده ، وخاطبه ربه: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** ﴿٤٦﴾﴾ **[هود]**

فامتنع النسب حتى فى الدنيا ، فالبنوة ليست بُنوة الدم واللحم ، البنوة ـ خاصة عند الأنبياء ـ بُنوة عمل واتباع.

وإذا تأملتَ تاريخ المسلمين الأوائل لوجدتهم يعتزّون بالإسلام لا بالأنساب ، فالدين والعقيدة هما اللُّحْمة ، وهما الرابطة القوية التى تربط الإنسان بغيره ، وإنْ كان أدنى منه فى مقاييس الحياة.

قرأنا فى قصة بدر أن مصعب بن عمير(٢) ـ رضوان الله عليه ـ وكان فتى قريش المدلل ، وأغنى أغنيائها ، يلبس أفخر الثياب ويعيش ألينَ عيشة ، فلما

---

(١) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٦/ ٩٠)، والنسائى فى سننه (٤/ ١١٤) والحاكم فى مستدركه (٤/ ٥٦٤) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبى ﷺ : «يبعث الله الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً. فقالت عائشة : يارسول الله، فكيف بالعورات؟ قال: لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه» قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».

(٢) هو : أبو محمد مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، أمه خُناس بنت مالك، وقد كان مصعب فتى مكة شباباً وجمالاً،وكانت أمه كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقّه، وكان أعطر أهل مكة، كتم إسلامه ولكن انكشف أمره فحبسته أمه وقومه ولم يزل محبوساً حتى هاجر إلى الحبشة. استشهد فى يوم أحد، قال عامر بن ربيعة: كان رفيقى من بين القوم، فلم أر رجلاً قط كان أحسن خلقاً، ولا أقلّ خلافاً منه. [الطبقات الكبير لابن سعد ٣/ ١٠٩].

أُشرِب قلبه الإيمان زهد فى كل هذا النعيم ، وحُرِم من خير أهله ، ثم هاجر إلى المدينة ، وهناك رآه رسول الله ﷺ يلبس جلد شاة ، فقال:«انظروا ماذا فعل الإيمان بأخيكم»(١).

وفى المعركة ، رأى مصعب أخاه أبا عزيز (٢) أسيراً فى يد واحد من الأنصار هو الصحابى أبو اليَسَر (٣) ، فقال له مصعب: اشْدُد على أسيرك ـ يعنى : إياك أنْ يُفلِت منك ـ فإن أمه غنية ، وستفديه بمال كثير ، فنظر أبو عزيز إلى مصعب ، وقال: أهذه وصاتك بأخيك؟ فقال: هذا أخى دونك.

إذن : فلا أنسابَ بينهم ، حتى فى الدنيا قبل الآخرة

وفى غزوة أُحُد ، استُشْهد مصعب بن عمير ، ولم يجدوا ما يُكفِّنونه فيه إلا ثوباً قصيرًا ، إنْ غطّى رأسه انكشفتْ رِجْلاه ، وإنْ غطَّى رِجْلَيْه انكشفتْ رأسه ، فقال النبى ﷺ : «غطُّوا رأسه ، واجعلوا على رجْلَيْه من الإذخر(٤)»(٥).

---

(١) أخرج أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ١٠٨) عن عمر بن الخطاب قال: نظر النبى ﷺ إلى مصعب ابن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطَّق به. فقال ﷺ : انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون. قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين (٤/ ٢٩٥):«إسناده حسن» .

(٢) أبو عزيز هو : زرارة بن عمير أخو مصعب بن عمير، له صحبة وسماع من النبى ﷺ ، واتفق أهل المغازى على أنه أُسِر يوم بدر. انظر الإصابة فى تمييز الصحابة لابن جر العسقلانى [ترجمة ٧٥٣ الكنى].

(٣)أبو اليَسَر [بفتح الياء والسين]: هو كعب بن عمرو الأنصارى شهد العقبة وبدراً، وله فيها آثار كثيرة، وهو الذى أسر العباس بن عبدالمطلب، كان قصيراً عظيم البطن، مات بالمدينة عام ٥٥ هجرية [الإصابة ترجمة ١٢٤٣].

(٤) الإذخر: حشيشة طيبة الرائحة يسقف بها البيوت فوق الخشب. [لسان العرب ـ مادة : ذخر].

(٥) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٧٦)، ومسلم فى صحيحه (٩٤٠) من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

والسيدة أم حبيبة بنت أبى سفيان لما أسلمتْ وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكن اتهمها البعض بأنها هاجرتْ ، لا من أجل دينها ، ولكن من أجل زوجها ، فيشاء الله تعالى أن يُظهِر براءتها ، فيتنصَّر زوجها عبيد الله بن جحش هناك ، وتظل هى على الإيمان ، ولما علم رسول الله ﷺ بأمرها أراد أنْ يُعوِّضها فخطبها لنفسه ، ولم ينتظر إلى أنْ تجىء ليعقد عليها ، فوكّل النجاشى ملكَ الحبشة ليعقد له عليها(١).

وبعد زواجها من رسول الله ﷺ أراد أبوها أبو سفيان زيارتها ، وكانت تمهِّد فراش رسول الله ، فلما أراد أبو سفيان أنْ يجلس عليه نحَّتْه جانباً، ومنعته أنْ يجلس ـ وهو كافر ـ على فراش رسول الله ، فقال: أضنّاً بالفراش علىَّ؟ فقالت: نعم(٢).

إذن: نَفْع الأنساب يمتنع فى الدنيا قبل امتناعه فى الآخرة ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تفضَّل بأنْ أبقى مطلوبات النسب فى الدنيا، ودعانا إلى الحفاظ عليها حتى مع الكافرين ؛ لأنه سبحانه وسع الكافر ، فعلى المؤمن أن يسَعه من باب أَوْلَى ، فإنْ رأيتَ الكافر فى شدة ، وقدرْتَ أنْ تُعينه فَأعنْه.

واقرأ فى هذا قوله تعالى: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا(١٥)**﴾ [لقمان]

(١) قال ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢/ ٣١) :«بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة ليخطبها عليه فزوّجها إياه وأصدق عنه النجاشى أربعمائة دينار وبعث بها إلى شرحبيل بن حسنة . وقيل: وكّلت خالد بن سعيد بن العاص فزوّجها، وذلك سنة سبع من الهجرة».

(٢) أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢/ ٢٣): «أن أبا سفيان قال لابنته أم حبيبة بعد أن طوت فراش رسول الله ﷺ : يابنية ، أرغبت بهذا الفراش عنى، أم بى عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك. فقال: يا بنية، لقد أصابك بعدى شر» ومعلوم أن أبا سفيان أسلم فيما بعد فى فتح مكة.